

مطبوعات اسلامیہ

# ظلال الحب

ابراہیم عبدالقادر المازنی



مطبوعات البحريه  
رئيس التحرير  
دكتور رشاد رشدي

نوفمبر ١٩٧٣

العدد الحادي والعشرون

غلاف :

---

محمد قطب

الطبعة الثانية

١٩٧٣

# رحلة إلى الجبار

إبراهيم عبد القادر المازني



الهيئة المنشورية والمساهمة للكتاب

١٩٧٣



## الإهداء

« الى التي تفرح لفرحي وتحزن لحزني والتي أسيء  
اليها فتعفو وأرهمها فتحتمل ، والتي لا تكون معي الا راضية  
عني مباهية بي داعية الى  
الى أمي ... »

ابراهيم عبد القادر المازني





## فتح الطريق إلى ينبع

رأيت نفسي اتساعل - وانا أصافح ربان السفينة  
واستفسر منه عن الجو وماينتظر أن يكون ، والبحر وهل  
يرجى أن يكون لنا .

«ماذا يرجى لهذه الأمة العربية التي سنشهد بعد  
أيام احتفالها بمبايعة ملكها ؟ هل تكرر على العالم منهضة  
جديدة ؟ أودع الكر فقد تكون مسافة ما بينها وبين العالم  
اطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلا ، وسئل هل في  
وسمها أن تشق طريقها إلى منزلة من منازل الحياة  
العزيرة ؟»

ومن عجائب النفس الانسانية انها تتسع لهذا  
الازدواج : هذا الربان أمامي اجاذبه اطراف الحديث  
وانتقل معه من جد إلى هزل ، وأعرفه بهذا وذاك من  
اخواني ؛ وتتسع حلقة الكلام وترحب دائرته وتكشر  
شعابه ؛ ويذهب هو يصف لي ميناء ينبع وجده وكيف

تكثر في مدخليهما الصغور ، وأنا منصت مرهف الأذان لكل حرف ، ولساني يجرى بالكلام مجاوبا أو ملاحظا أو مسائلا ، وإذا بخاطر آخر يشغل من النفس الحيز الأكبر ويدور فيها ويأبى إلا أن أعنى به والتفت اليه . ولعل للقلب في أثناء ذلك التفاتة أخرى إلى الأهل والخوان وإلى ما خلف المرء وراءه من معاهد حياته ، وأغرب من هذا أن تكون الالتفاتة عمومها كالخصوص فهي لفظة شاملة محيطية ، ولكل شخص ولكل حادثة حظ نسبي من البروز ، ولكل ذكرى محلها ولكل عهد مكانه ، بلا بخس ولا وكس . على أن هذا ليس موضع الإفاضة في قدرة النفس على الاشتغال بأكثر من أمر واحد والانصراف إلى كل شأن كأنها متخيلة له ، فلنرجع إلى ما كنا فيه .

لم أجب علي سؤالي وأن كان التفكير فيه قد شغلني طول الطريق ، الآن كل ما عرفه عن العرب في حاضرهم مستفاد مما قرأت أو سمعت ، ولم أر موجبا للتعجيل بالجزم وليس بيني وبين المعاينة إلا أيام . غير أن هذا لم يعفني من الحاح هذا المخاطر الذي ظلت النفس تواجهني به وترفعه قبل عيني على صبور شستى . فمرة يكون السؤال كما أورده ، وتارة يكون «هل في الأمة العربية مادة صالحة لما تتطلبه الحياة في العصر الحاضر من الكفاح المر ؟

وطورا يهتف الأمل «إن هذه الأمة تفالب طبيعة

بلادها الماحقة وتصارع أهوال الصحراء فلم لا تستطيع أن  
تكافح المصاعب التي تحفها بها الأحوال العارضة ؟»

وربما جنحت النفس الى اليأس كلما تصورت بعد  
ما بين العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة وتعذر  
اللقاء بهذه الشعوب التي أغذت السير قرونا وهم  
يحدون الأبل ويقتتلون كما كانوا يفعلون في الجاهلية . بل  
كان اليأس يخامرني كلما تخيلت الصحراء الساحقة التي  
يصارعونها وكنت أقول لنفسي : «هل يتاح لأمة واحدة  
أن تنهض مرتين وأن يكون لها في التاريخ مدينتان عالميتان؟  
ألا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها ولا تبقى  
منها الا ما يبقى من الياف «القصب» الجافة بعد مصه او  
اعتصاره ؟»

وهكذا الى غير نهاية ! فما لقينا من البحر ما يصرفني  
عن التفكير أو يعدل بخواطر النفس الى مجرى آخر .  
ولقد كنا في السفينة وكأننا في بيوتنا لا على الماء ، وكانت  
السفينة تفرق البحر وكأنها لا تمسه فلاموج ولا اهتزاز  
ولا دوار ، حتى لقد اشتقت أن يطفئ بنا قليلا ليردنا الى  
التهيب ، غير أن البحر خيب أملى فيه .

وقد فرحت في أول الأمر بالفرصة التي اتاحت لي  
هذه الرحلة وقلت لنفسي ان المصريين يخرجون أفواجا الى  
الأقطار الاخرى وصار ذلك سنة مرعية عندهم ، حتى  
ليخيل للمرء في مقدمة المصيف أن هذه الأمة المصرية قد

أزمنت أن تهجر الى واد غير واديهما ، وكنت في صيف كل عام أخشى أن لا يبقى في البلاد غيري ، وأن لا يعمرها سوى ، فلما عرضت هذه المناسبة للسفر الى الحجاز في الشتاء قلت : حسن : دقة بدقة والبادي اظلم ، لقد عمرت الوادي من قبل فلتعمره الامة الآن ، ولتقم عني بواجب الحراسة التي أراني كأنما كنت موكلا بها ، فما أحسب احد اطاق أن يقيم كما اطلقت ، لكأنما كنت كلبا حارسا لا انسانا له ديباجة نخلق ، وتستحق أن تتجدد .

وسرني على الخصوص أن السفر الى الحجاز لا الى الغرب ، ذلك أن الغرب يزور مصر ، ولو شئت لقلت أنه يفزوها ، فلما نحتاج أن نزوره ، أما الحجاز فأمره مختلف جدا ، ونحن خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربي أعمق وصلتنا به أوثق وارتباطنا به أمتن . وما أحسبني أبالغ حين أقول أن مستقبل الشرق واحد وإن تفاوتت خطى أبنائه . ومن الجهل أن نشيح بوجوهنا عنه ، ومن الخرق أن نتجاهله ومن البلادة أن ننسى أننا مرتبطون به وإن خفيت الخيوط ، ومن الغفلة أن نتوهم أن الرحيل لا يكون نافعا الا الى الغرب ، وأنه لا فائدة تكتسب من زيارة الشرق والاطلاع على أحواله .

وعرفت اسماء رفاقي فاطرقت افكر : هذا احمد زكي باشا أحدهم وهو شيخ العروبة أولا ادري ماذا يسمونه أو يسمى نفسه وهذا آخر من المجاهدين في سورية ، وهذا ثالث كان له في حركة الاستقلال السوري

دور هو أشبه بقصص السندباد البحري «١» فماذا عسى  
أن أكون بينهم ؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك ؟ هل في  
مقدورى حين أفخر أن ادعى أنى أكثر من جندى صغير ؟  
ثم هؤلاء زملائي وليس بينهم إلا من هو انشط منى  
وأجرا .

واستعرت من زميل لى مبرة ، وملت الى الحاجز  
على ظهر السفينة وأرهفت أقلامى ، ثم لم أجد لى عمسلا  
بعد ذلك فاقمت حد المبرة على حديد الحاجز ورحت كأنى  
أقطع ، فسمعت قائلا يقول لى :

«رفقا بالسفينة يا صدىقى ، أو بمبراتك اذا كان امر  
السفينة لايعنيك !» فالتفت فاذا انجليزى فى مثل ثياب  
الربان .

فقلت له :

«المبرة عارية وقد آن أن أردھا»

فابتسم وقال :

«بعد أن شحذتها ؟»

فسأله وأنا أشير الى رجل فى مقدمة الباخرة :

« من هذا الرجل ذو الوجه الأمري والنظرة

الوحشية ؟ »

---

(١) هما نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى من المجاهدين  
فى القضية العربية .

فقال : «هذا الكبتن ... لقد كان ضابطا في البحرية  
البريطانية وأبلى في الحرب الكبرى بلاء حسنا ، وقد سرح  
وهو الآن يعمل في هذه الباخرة» .

فتركته ، وسرت خطوات فرأيت أمامي سلما صعدت  
عليه فألفيت أمامي قوارب النجاة قدنوت من أولها ، وخطر  
لى أن امتع نفسي بالجلوس فيه ، فشرعت أرفع رجلى  
لأخطو الى جوفه واذا بيد على كتفى تجذبني وصاحبها  
— أعنى صاحب اليد — يقول

«انى مضطر أن أحملك على ترك هذا . واذا كنت  
تريد أن تعرف شيئا فأرجو أن تسألنى ...»

ولم يتم كلامه بل تركنى وقفل راجعا الى حيث  
لأعلم كأنما ناداه أحد وان كنت لم أسمع صوتا ، قدنوت  
من خادم وسألت عنه من يكون ؟ فقال

«هذا الكبتن ... مساعد الربان»

فقلت : «هذا أكثر مما أظيق . اسمع . انك مصرى  
مثلى فاصدقنى . اذا أغمضت عينى وسرت فى هسله  
الباخرة ووضعت يدى على أول رجل اصطدم به فهل يمكن  
أن يتضح أنه ليس بكبتن ؟»

فضحك الخادم وهو من السويس وقال :

«لأأدرى ، ولكنى أرجح أن تصطدم بالكبتن الملاحظ  
فانه وراءك الآن وعلى مسافة مترين فقط» .

فانحدرت الى غرفتي وأنا أقول لنفسى : « ان السفينة التى لها رئيسان تفرق فكيف بواحدة عدت من (كباتنها) أربعة الى الآن ! اللهم اطفك ! » وفترت رغبتى فى الطعام ، وكان نبيه بك العظمة يحرضنى عليه ويلح على أن أصيب منه قليلا ، فاعتذرت بالألم الذى سببته لى حقنتا الكوليرا والتيفوئيد ، وكتمت عنه وعن زملائى أن للسفينة مائة رئيس حتى لازعجهم .

ومضى اليوم الأول وأصبحنا دون أن نتصادم «ارادات» هؤلاء القباطنة أو الكبائن ، فذهب عنى بعض الروع وعادنى شىء من الاطمئنان . واتفق أن سألنى بعض رفاقى :

«بسرعة كم ميل تسير هذه السفينة ؟»

فقلت : «لأدرى ، ولكنى أقدر أن سرعتها لاتتجاوز اثنى عشر ميلا بحريا فى الساعة » .

فصاح بى واحد :

«مهلا ! ان سرعتها خمسة أميال فقط !

قلت : «خمس أميال ! ياللعار ! لو سرنا على أقدامنا لسبقناها !»

فعاد يؤكد الأمر ويقول انه استقى هذه الحقيقة من الكبتن فأيقنت أنه لولا كثرة القباطنة لكانت البأخرة

أسرع . وقلت لنفسى اذا كان البطء كل ماثودى اليه  
كثرتهم فلا بأس .

واستيقظت بعد ظهر يوم على صياح عجيب ،  
لا هو صياح ولا هو استغاثة ، لأن فيه انتظاما ولأن فى  
الصوت تنغيما ، فاستويت قاعدا وأرهفت أذنى فخيّل  
الى أن الألفاظ عربية ولكن اللهجة غريبة ، ثم تبينت  
لفظين هما : «الله اكبر !» ولكن اللسان الذى يعلو بهما  
كان أعوج ملتويا ، فعجبت ثم تذكرت أنها إحدى سفن  
«البوستة الخديوية» وهى شركة انجليزية تسير بواخرها  
بين السويس والسودان جيئة وذهوبا ، وتنقل الحجاج  
— فيما تنقل — الى ينبع وجدة — وقد رأينا بعضهم فى  
البخرة على غطاء مخزن البضاعة حيث يفرشون  
السجاجيد ويكديسون امتعتهم ويحشرون أنفسهم بينها  
تحت سماء الله — وهذا هو مكان الدرجة الثالثة .

وقد قلت لنفسى لما سمعت هذا الصوت : ان  
الانجليز قوم يتوخون ان يتكيفوا على مقتضى الظروف  
ووفق ما تتطلبه الاحوال وهذا الذى سمعته اذ ان أى دعرة  
الى الصلاة ، وليس مما يتناقى مع الشدوذ الانجليزى  
ان تكون الشركة قد عينت للأذان فى البخرة واحدا من  
هؤلاء «الكباتن» الذين لا أدري ماذا يصنعون جميعا فى  
سفينة صغيرة كهذه .

وسرنى وأضحكنى أن المؤذن «كبتن» انجليزى ،



وقلت أشرك أخواني فيما يفيد العلم بذلك من المتعة ،  
فعدوت الى سطح الباخرة حيث كنا نجتمع فالتقيت  
بواحد أقبلت عليه أفضى اليه بخبر هذه البدعة  
السكسونية . فضحك ، ولكن منى ، ثم أشفق أن يعرف  
زملائى زلتى فركبنى الثقلاء منهم بالسخرية ، وأوماً  
فاذا تحت أنفى جماعة من العرب يصلون ؛ وإذا صوت  
الامام كصوت المؤذن فيه ذلك الالتواء الذى خدعنى .

وكانت سلوتنا الحديث والنظر الى البحر ،  
و « الطاولة » وكان بطلها - أعنى الطاولة - أحمد زكى  
باشا ، غلبنا جميعا وأقر لكل منا بأنه خير لاعب ، وفى  
زكى باشا نشاط وجلد وقدرة على الاحتمال وحلم وظرف  
وعطف ودعابة ، راثنين منه ، وكان لنا كالوالد يحنو  
علينا ويسأل عنا ويتعهدنا ولا يؤثر نفسه دوننا بملهاة ،  
ولا يستبد برأى أو يصر على اقتراح جدا كان أو هزلا ،  
بل الراى عنده مارات الجماعة ، يتقبله مرتاحا وينزل على  
حكمه راضيا ولو كان هو مقتنعا بصواب مايلذهب اليه ،  
وكان أعذب الجميع حديثا وامتعمهم مجلسا نبيه بك  
العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى ، فتعلقت بهما  
وانقلت عليهما بمحضرى ، ولم أدع لهما راحة ، ولم يبخلا  
على شىء مما استخبرتهما عنه فكانا يهضبان لى بما رأيا  
وجربا وكابدا فى رقع شتى من الأرض فى الحرب والسلام ،  
ولم يكن لهما منى مناص أو مهرب سوى البحر ، وهما  
لايزالان أوسع آمالا فى الحياة وأطلب لرغائبهما منها

وأقوى رجاء في الله وفي بلوغ الغاية القومية من مساعييهما  
من أن يفكرا في الانتحار فرارا منى ، لذلك توثقت بيننا  
العري كارهين أو راضيين ، فلما بلغنا ينبع صرنا وكأن  
صداقتنا أقدم عهدا من الجبال .

ولست أنسى منظر الزملاء وقد اعترتهم نوبة  
«الكتابة» - وتصور سبعة أو ثمانية قد جلسوا على  
الكراسي المسمرة وأقبلوا على الورق والبطاقات يسودونها  
لما علموا أنهم مصبحون في ينبع وأنهم قد يستطيعون أن  
يبعثوا برسائلهم من هناك «١» - إلى أهلهم وأخوانهم  
وصحفهم ، ويكفى أن يجلس واحد للكتابة ليحتذى  
الباقون مثاله ويعديهم بالرغبة في ذلك ، فليست الثوباء  
وحدها هي التي تمدي ، ولا القُرود دون خلق الله هي  
التي تنزع إلى التقليد ولو أن القاريء رآنا في تلك الساعة  
ونحن مكبون على الورق ذاهلون عن كل مافي الدنيا أكان  
أول ما يخطر له أننا قد آلينا أن نصدر في الباخرة  
الصحف التي نمثلها ، أو أن هناك امتحانا معقودا لنا .

وعرض علينا أحد رجال السفينة بطاقات عليها  
رسمها فتخطفناها حتى نفدت ! كما نفذ ورق الخطابات .  
وتصور سبعة أو ثمانية يستنفدون كل مافي الباخرة من  
ورق وخطابات ، اليس هذا دليلا على الهمة والنشاط  
والخصب ؟ وأحسبني مسئولا عن العدد الأكبر من هذه

---

(١) اتضح فيما بعد أن إبقاء الرسائل في جيوبنا أسرع من إرسالها  
من ينبع أو جده .

الأوراق التى استهلكت ، فقد نازعتنى نفسى أن أكون متفرجا لا كاتباً ، وأن أمتع عينى بمناظر الوجوه المكبة على الورق وما يظهر عليها من دلائل الاجهاد - اجهاد القرائح الخصيبة - فلجأت الى الحيلة وقلت اكتب رسائلنى بالجملة ، فجئت بورق الكربون ووضعت بين الخطابات ، وكتبت رسالة واحدة وجيزة ثم جلست اتفرج !

وكان أحدنا يكتب يرميات عن هذه الرحلة وكان يختصنى بهذا السر ، ولأدرى متى كان يكتب يومياته ، فما رأيته قط خلا بنفسه أو بكر الى مخدعه ، وقال لى مرة :

«لقد صارت مذكراتى ضخمة . كتبت اليوم ست صفحات وكتبت البارحة سبعة ، وأول من أمس تسعا ، فما قولك ؟»

فقلت مستغرباً : «كل هذا ؟ واى شيء وجدته يستحق التسجيل ؟»

قال : «كل شيء . خطوط الطول والعرض ، ووجره القمر ، وأدوار الطاولة التى لعبتها وفى أيها كنت الغالب أو المفلوب ، والأسماك التى رأيناها فى البحر ، بعضها يطير على سطح الماء ؛ وبعضها يهاجم السفينة طلباً للقتل ، والبواخر التى مرت بنا فى الليل وحييناها والأمم التى هى تابعة لها - وعلى ذكر ذلك أسالك هل تعرف

لماذا لانرى باخرة فى النهار ؟ ألا تعرف ؟ - وكم كاذبة كذبتها ... فلان ... اليوم ، وحالة البحر والرياح ، وان كانت لا تتغير ولا تكاد تختلف يوما عن يوم ، وهذا ممل ، اليس كذلك ؟ وكم صورة أخذها رياض وكم صورة أخذتها المدموازيل عايده ؛ كل شيء ؛ كل شيء ، حتى لقد أفردت «الأكلة الصيادية» عدة صفحات ، انها تستحق ذلك فقد كانت أكلة غير منتظرة وكانت للذيدة . والفول المدمس ! أوه . له وحده صفحاتان . ألا تسراه جديرا بذلك ؟ مدهش . مدهش أن ناكل فولا مدمسا على الباخرة نالودى الانجليزية !»

فسأله بعد أن انقطع نفسه : «وماذا تنوى أن تصنع بهذه المذكرات بعد أوبتك ؟»

قال : «سأطبعها وأنشرها : كم تظن انها تساوى ؟ أعنى كم تتوقع أن أربح منها ؟ »

قلت : «تساوى : تسارى اذا اعتبرنا عددالصفحات ووزنها قياسا على ما كتبت الى الآن مائة جنيه أو مائتين»

فصافحنى مسرورا وهو يقول «لقد قدرت لربحى مثل هذا ... تماما» .

فقلت مستدركا «انما أعنى ثمن الورق الذى تملؤه ... أما الربح فلا أدرى . ربما كان أكثر وقد يكون أقل» .

فلم يضعف أمله وقال «تمام . تمام . تقديرك على كل حال مضبوط» ومضى عني .

ولما كنا عائدين من مكة سألته : «إلى أين وصلت في مذكراتك ؟»

فطال وجهه وقال : «يا أخى الحق أقول لك إن كتابة المذكرات عمل مضم . ثم إنى لأجسد الوقت . نحن في حركة دائمة فمتى أكتب ؟ على إنى سجلت كل شيء في رأسى . فان ذاكرتى قوية وأنا أذكر حتى الأحاديث بألفاظها ولو كان عمرها أعواما . فلاخوف . انتظر حتى نرجع ونطمئن» .

\* \* \*

وفي الساعة السادسة من صباح السبت ( ١ يناير ) أيقظنى أحد الزملاء وأبلغنى أن الشاطيء قد ظهر ، فقلت له وأنا أتميز غيظا إنى لأحفل بالمشواطىء - ولو كانت شواطىء الجنة - في الساعة السادسة صباحا ، فذهب عني وأغمضت عيني ، ولكن غيره جاء ثم غيره ، فأيقنت أن الحماسة التى أوقدها ظهور الشاطيء لن تدع لى برفنا يفنى ، فقممت متشابها متشاغلا ووقفت متكئا على الحاجز فلم أر شيئا فالتفت الى أول من أيقظنى وقلت بلهجة المعاتب :

«أين هذا الشاطيء الذى بدا لك ياسيدى ؟»

فقال : « هذا . ألا تراه ؟ غريب . انى أستطيع أن  
أشير الى المكان الذى سترسو أمامه الباخرة . لابد أن  
يكون هذا » .

ومرت الساعات ونحن نروح ونجىء وهو فى مكانه  
لا يتحول عنه ولا تتعب رجلاه ، وبدأت ينبع ملفوفة فى  
الضباب ، حتى جبال رضوى التى تظهر من ورائها  
خلناها ضباباً من اختلاط السحب برؤوسها ، فاختلفنا  
وتراهننا ، وشرعت السفينة تدور لتدخل المرفأ فقربنا  
جداً من الساحل وشاء الحظ الساخر أن يكون المكان  
الذى أشار اليه صاحبنا وأصر على أن الباخرة سترسو  
عنده ، هو المقبرة .

ورست الباخرة ، فى المرفأ لا أمام المقبرة ، واقبل  
الصبيان يسبحون اليها كالسمك وينادوننا أن نلقى اليهم  
بالقروش ليلتقطوها فرحنا نرمى اليهم بالقروش بعد  
القرش وهم يتزاحمون عليه ويفوصون وراءه ويتلقونه  
بأكفهم وهو يهبط فى جوف الماء قبل أن يبلغ القاع ، فمن  
فاز به دسه فى شدة ، حتى انتفخت اشداهم وصارت  
وجوههم مشوهة بشعة المنظر .

وركبنا زورقا الى المدينة ، وهى صغيرة فقيرة ،  
وبها مساجد كثيرة أشهرها مساجد ابن عطاء والخضر  
والسنوسى ، وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم ، وليس  
فيها زرع ولا ضرع ، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب

يسمونها «الكندنسة» وهي لفظة محرفة عن الكوندنسر ،  
فاستقبلنا قائم المقام الشسيخ مصطفى الخطيب وهو من  
أهلها وكان عاملا عليها في عهد الحسين لم تنحه الحكومة  
السعودية ترفعا منها عن حماقات العزل والتأثير ، وزرنا  
دار الحكومة وهي أبسط ما تكون : بضعة مكاتب في الدور  
الأرضي ، وفي الدور الذي فوقه غرفتان أحدهما للقائم مقام  
وفيها مكتب وسجادة ولشبابيكها ستائر ، وفي الأخرى  
مكتبان صغيران . وبعد أن شربنا القهوة النجدية نسّم  
«الشاهي» كما يسمون «الشاي» استأذنا وأنحدرنا إلى  
المدينة نطوف فيها إلى أن يخرج الأمير والناس من صلاة  
الظهر ، فمررنا بالسوق وهي حارة ضيقة مسقفة على  
جانبيها الدكاكين فيها صنوف شتى من العطارة والبقول  
والمنسوجات والخبز والأسماك والجراد ، وقد أكل منسه  
زكى باشا ، ولم يكن في الدكاكين أحد لأنه كان وقت  
الصلاة ، وكان الطريق غاصا بالأطفال يمشون وراينا  
ويحفون بنا في خرق ممزقة ومراقع لا تكاد تستر شيئا .  
فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتاجر أن يسرق منها هؤلاء  
الغلمان الفقراء ؟؟ فقل لي انه لا خوف منهم لأنه ما من  
أحد يجرؤ أن يسرق شيئا .

وبلغنا آخر السوق حيث المسجد وكان الناس قد  
فرغوا من الصلاة فوقف رجل أمام كوم من الكلا وقطع  
من الحصير وأعواد من الخشب يبيعها بالمراد ، وآل  
ما أمامه لايساوى ريالاً .

ولم أر امرأة ولا بنتا ، إلا واحدة في نحو السابعة  
من عمرها ملفوفة في ملاء قلدة وفي إحدى أذنيها قرط  
من العقيق ، وقيل لى أن النساء لا يخرجن من البيوت ،  
والأهالي خليط من كل جنس وملة ، وسبحنهم معرض  
للأمم الشرقية ، فمن زنجى إلى جاوى ، ومن عربى إلى  
مصرى ، ومن هندي إلى فارسي ، ومن سوري إلى  
صومالي ، وهكذا .

وزرنا الأمير - أي الحاكم - عبد العزيز بن معمر ،  
وهو شاب نجدى جميل الطلعة وسيم المحيا مقدود قد  
السيف ، والدار على الطراز الشرقى القديم الذى كان  
مألوفاً فى مصر منذ أكثر من خمسين عاماً ولا تزال بعض  
آثاره باقية فى الأحياء الوطنية التى لم تمتد إليها يد  
العمران الحديث مثل الكحكيين وسوق السلاح ، وغرفة  
الاستقبال فى داره مفروشة ببساط أحمر والكراسى  
(الخيزران) صفان على الجانبين ، وفى الصدر مصطبة  
مفروشة بالسجاد العجمى وعليها الوسائد لجلوسه وكان  
الأمير يلبس جلباباً من السكرورة فوقه معطف من الكشمير  
عليه عباءة حمراء وعلى رأسه العقال الأسود والمسدس  
مشدود إلى وسطه والسيف المذهب المقبض يتدلى من  
حمائله ، ومن عاداتهم أن يجلس حرسه الخاص على  
جانبى الباب من الداخل فى نفس الغرفة ، ويجلس الباقون  
من الحراس خارجها وهم جميعاً مسلحون ، والسيوف



والبنادق والمسدسات وأحزمة الخراطيش معلقة على الجدران  
فكان الغرفة مخزن سلاح لا حجرة استقبال .

وفي ينبع بلدية، ومكتب تلفراف لاسلكى، ومدرسة  
أولية ابتدائية يديرها مصرى طبقا لمناهج التعليم المصرية  
وفيها نحو مائة وتسعين تلميذا متفاوتى الاسنان  
والأطوال ، متباينى الثياب مختلفى الوجوه . ومصلحة  
للصحة . . الخ .

وقد شمرنا من أول لحظة أننا فى بلاد مستقلة فلا  
أجنبى هناك ولا نفوذ ولا سلطان الا الأبناء البلد وكل  
موظف حجازى حتى اللاسلكى عماله ومديره حجازيون ،  
وقد أبى زكى باشا الا أن يرى هؤلاء العمال وهم يعيشون  
بتحيتنا الى سمو الأمير فيصل فى مكة كأنما لم يكن يصدق  
أن لابسى العباءة والعقال يستطيعون أن يحسنوا  
مايحسنه الأوربى من الأعمال الآلية على الأقل .

وودعنا الأمير بعد أن أخذت صورتنا معه وعدنا الى  
الباخرة وهناك جاءنا وفد من ينبع ليرد لنا الزيارة  
ويشكرونا ، وبعث إلينا الأمير بعدد من الخراف هدية منه  
عوضا عن الغداء الذى لم نستطع أن نجيب دعوته اليه  
اذ كنا قد تغدينا فى الباخرة .

فمرنا ماذا نصنع بهذه الخراف ! وعقدنا مؤتمرا

للتشاور . فقال واحد نردها شاكرين ، ولكن هذا كان مستحيلا ، واقترح ثان أن نردها ولكن لتدبح وتوزع على فقراء المدينة ، ولكن هذا كان رذا على كل حال ، وفيه فضلا عن ذلك خشونة التعريض بالمدينة وأهلها وحكومتها وقال ثالث ان في الباخرة حجاجا فقراء فلندبح الخراف لهم ولنوزع لحمها عليهم ، ففعلنا .

وهكذا كان كل اقتراح مولدا من الذي سبقه ، وانتج الخطأ في آخر الأمر الصواب . ولا عجب ، فما من خاطر أو احساس إلا وهو وليد خواطر أخرى وأحاسسات شتى ، وليس في الدنيا إلا آدم واحد بلا أب أو أم .



وفي ينبع وجدت « صندوق الدنيا » ، وكنت احسبني حططته عن هاتقى في مصر ، وكان ظنى أنه يسعني بعد أن سافرت أن أمشي خفيفا لا يثقل كاهلى هذا الحمل ولا يحنى ظهري ثقله ، فإذا بى قد صرت كالأحذب لا يدخل في مقدوره أن يستوى قائما كغيره من بنى آدم الذين كتبت لهم السلامة من أعوجاج الخلق وحذب الظهر وقال لى واحد :

«لقد قرأت صندوقك»

ففاظنى ذلك وان كان قد سرنى ، وقلت «سأضعك

فيه ان شاء الله ليُبعد عودتي» فأقبل على يرجو مني ألا  
أفعل ، فقلت :

«على شرط»

قال : « ما هو ؟ »

قلت : «ان تعفيني انت واخوانك من ذكره والا  
حشرتكم فيه جميعا» .

قال وهو يضحك :

«ولكنه والله ممتع»

قلت : «وسيكون الجزء الثاني أمتع بوجودكم»  
فامتقع وجهه ، وأحسبه خاف أن أرسم له صورة  
تمسّخه وتجعله أضحوكة فطمأنته وأكدت له أني اسرح .  
فسألني وقد سكنت نفسه :

«ولكن لماذا تكره ان يذكر لك ؟»

فقلت له : «ان الذي يضحكك منه هو الذي أبكاني  
وأحسبني معذورا اذا كنت أزهد في كل ما يذكرني بسخر  
ماجرت به المقادير . فاذا كنت تفهم هذا فيها والله الحمد ،  
والا فأمسك ودعنا نستمع الى الباشا وهو يتحدث عن  
العروبة ويذكر الجواد الذي أهدها اليه جلالة الملك  
عبد العزيز فلم يدر كيف يركبه أو يطعمه أو يلجمه أو  
يسرجه — سله ألم يخطر له ان يطعمه كنافة في رمضان

سله اكان ياكل - اعنى الجواد - من المدود ام كان الباشا  
- يبسط له السباط ويمد له الخوان ؟ » .



وفي ينبع عشرة آلاف نسمة واقل من مائة جندي ،  
والحكومة كأبسط ماتكون ، ولا حاجز هناك بين الأمير  
واحقر الأهالى ، وسلطان الحكومة ليس مستمدا من  
الخوف الذى تبعثه القسوة ، بل من الاحترام والحب  
والتعاون ، وآية ذلك أن الناس صريحون مع حكاهم وأن  
الحكام لا يبدرو عليهم تكلف ، ولا تكون الحراسة مع الخوف  
والتقية ، ولا الخوف مع البشر الذى ينضج به الوجه  
ولا يخفى فيه صدق السريرة ، ولا هذه البساطة المتسمة  
مع القسوة والاستبداد . ولم اسمع فى المرتين اللتين زرت  
فيهما ينبع ، أمرا يلقى ، أو كلمة ملق ودهان ثقال ، ولقد  
كان أمير ينبع يسر الى الرجل من حرسه ان يطلب القهوة  
أو « الشاهى » أو يدمو فلانا أو علانا أو يفسح الطريق ،  
وكنت أراه وهو يميل عليه كأنه يهمس فى أذنه نكتة أو  
كلمة سارة . ولم تأخذ عينى منظر قسوة واحدا ، وكثيرا  
ما كانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا  
أمامنا - فى ينبع وفى جدة وفى الكندرة وفى مكة وفى وادى  
فاطمة - وكان الدين يتولون ذلك الجند . ولكن بإشارة  
يد من غير أن يدفعوا فى صدور الناس أو يرفعوا فى  
وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك وقد  
عدت من ينبع الى الساخرة وأنا أحس أنى بدأت أفهم ،

وقد زدت فهما لما زرت جدة ومكة ، ذلك أن الرعية  
راضية وأن الحاكم والمحكوم متعاونان .

وقد اقتنعت ، وأنا لأزال في الباخرة قبل أن أصل  
إلى جدة أو أضع رجلى على رصيف مينائها ، بأن المرأة  
النجدية تعرف السفور ولا تعرف الحجاب ، وكان اقتناعى  
بالمشاهدة والمعاينة وليس بالسماع ، ورأيت من الحزم  
أن أكتف عن زملائي ورفقائي في هذه الرحلة هذا السر الذى  
اهتديت إليه الأنفرد بالعلم به واستأثر بفضل اكتشافه  
والوصول إليه ، وقلت لنفسى : أن الصحافة سبق ، ولن  
تكون لى مزية على اخوانى إذا عرفوا كل ما أعرف ، ومالى  
أنا بهم ؟ أليست لهم عيون مثل مالى ؟

ونزلنا فى ينبع وجبنا طرقاتها ومررنا بحوانيتها  
ورأينا ناسها ، وكنت أسمع زملائي يتحدثون عن المرأة  
والحجاب المضروب عليها ويرددون ما سمعوا من أنها  
لا تخرج ولا تظهر ولا يراها غير زوجها وذوى قرابتها الأدنى  
فأبتسم ساخرا وأهز رأسى هازئا متهكما وارد نفسى  
جهد عن أن أصبح بهم :

«يا عميان ! ان نصف من ترون فى الطرقات نساء  
نحسبوهن رجالا !»

وقد رأى زملائي المساكين جدة ومكة وما بينهما  
يعادوا وهم على ذلك يعتقدون أن النساء النجديات

محجبات ! مساكين ! لكم وددت ان اشقى لهم بالمبرة  
جفونهم المطبقة ليبصروا وكم نازعتنى النفس ان اخطبهم  
على ظهر السفينة ونحن راجعون ، وان القى عليهم  
محاضرة فى النظر وكيف ينتفع صاحبه به ولكن الأثرة  
غلبتني ، وحب الذات كان أقوى فتركهم يرجعون كما  
ذهبوا بعيون مفتوحة كمفمضة ، وكان احتمالى هذا  
الكتمان وقدرتى على الامساك على سر ما علمت ، بهذا  
شاقا لم اكن الأقوى عليه لولا الإرادة المصممة ، والآن وقد  
امتحننت ارادتى وأيقنت أنى نجحت ؛ أرانى أستحق أن  
أرفه عن نفسى بالافضاء وأن أرخى أعصابى المشدودة  
بالبوح بما أحسنت كتمانته .

لما صرنا أمام رابع أحرمت الباخرة - أعنى ركابها -  
الذين ينوون أن يقصدوا الى مكة مباشرة فظهر بيننا  
فجأة رجل نجدى قيل لى انه أمير فى قومه وحوله حاشية  
كبيرة من أتباعه وعبيده ، وكلهم محرم ، والاحرام لا يمنع  
أن يلبس المرء سلاحه ، فكانوا يحملون فوق ما أحرموا به  
المسدسات والخناجير وأحزمة الخراطيش واتصلت بيننا  
وبين هذا الأمير الأسباب ، فاختلطنا وصار عبيده وخدمه  
يسبقوننا من قهوتهم النجدية الحادة ، وهم يقدمونها فى  
فنجانة كبيرة مفرطحة يصبون فيها نقطة ، أو رشفة ،  
تحتاج لكى تشربها أو تلحسها أو تنقلها الى فمك ، أن  
ترفع وجهك الى السماء وتقلب الفنجانة على فمك لينحدر  
ما فيها الى لسانك ، حتى اذا فرغت دون أن تقع على

الأرض رددت الفنجانة فصب لك فيها رشفة أخرى اذا  
راقتك الحركة التي يكلفك اياها شربها والا هززت الفنجانة  
علامة الاكتفاء ، وقد سمعت - وصددت - ان القهوة  
النجدية تقوى عظام العنق . وقد سمعت أيضا - ولكنى  
لم ار هذا - انهم يعتقدون مباريات لشرب القهوة وهم  
وقوف .

وكان معنا «رياض افندى شحاته» المصور المشهور  
فدعاهم الى الوقوف معنا ليصورنا ففعلوا وكنت غائبا  
فنادونى فأسرعت اليهم ووقفت حيث وجدت لى مكانا  
واذا برياض افندى يدعونى ان اتزحزح عن مكانى ويشير  
الى جارى فالتفت الى يمينى فلم يسعنى الا ان اتراجع  
بسرعة والا ان اقول :

«بردون مدام ! أعنى معذرة ياسيدتى ! لقد زاحمتك  
وانا غافل عن وجودك فلا تأخذينى ! تفضلى» .

وتنحييت بعد هذه الخطبة التي لم ترق من سمعها  
من اخوانى فصاح بى واحد :

«ماذا تقول ؟ قف يا اخى هنا . نعم هنا واسكت» .

فهزرت راسى آسفا مستغربا قلة ذوق هذا الزميل  
الذى ينقم منى تأدبى مع سيدة . فسمعت رياض  
افندى يصيح بى .

«ما تهزى راسك يا استاذ مازنى»

فحار الأستاذ المازنى بين رياض افندى وهذا  
الزميل المويخ وقال - اى الأستاذ المازنى - لجواره الى  
يساره :

«انا كنت اعتذر فويخنى زميلى لادرى لماذا ؟ هل  
كان بليق أن اكنم الاعتذار لها بعد أن فطنت الى غلطتى ؟»  
ففنح جارى عينيه جدا وقال بلهجة المستغرب  
«ماذا تقول ؟ من تعنى ؟»

وهنا صاح رياض افندى  
«ياأستاذ مازنى اعمل معروف اقف ساكت خلىنا  
نخلص» .

فقلت «اما ان هذا لفريب ! وهل انا الذى اعطلك؟  
الحق اقول انى صرت لافهم» وايقنت أن رياض افندى  
غائر منى .

وقال واحد كان ورائى  
«لابأس . اجل الفهم الى مابعد التصوير» .

فنظرت الى الأمير فرايته يبتسم . وثنيت عيني  
الى جارتى الرشيقة وشعرها الوحف المضفر الذى يفترق  
فوق جبينها الوضاء ويلمع فى ضوء الشمس كأنه مدهون  
«بالبريشتين» والى حور عينيها الواسعتين اللتين يزينهما  
الكحل ، والى ديباجة وجهها الضافية وماء الشباب الذى  
٣٠



يتشقق في وجنتيها ، والابتسامة الخفيفة المغرية التي  
تفتر عنها شفتاها الرقيقتان .

وأحسب عيني لم تتحول عنها ، وأظنني ظهرت في  
الصورة ناظرا اليها لا الى رياض افندي ، فما كدت  
التفت اليه حتى كان قد فرغ مما يريد فقلت لا بأس ،  
وأقبلت على صاحبتى أكرر لها الاعتذار وهى لا تزيد عن  
الابتسام ولا تفتح فمها قط . حتى كدت أجن سوقا الى رؤية  
أسنانها التي لم أشك في أنها من مفاتيحها الكبرى .

وأشرت الى فمي وقلت أستفزها الى الكلام .  
«ليس لك لسان ؟ أنت خرساء ! مسكينة !  
يا لسخر الاقدار !» .

فهزت رأسها وقالت شسيئا لم أفهمه . فأعدت  
ما قلت ببطء شديد ووضوح تام ، فضحكت وهزت رأسها  
ثانية ، وتكلمت ، ولكنى لم أفهم ، فخطر لى أنها غير  
عربية ، وأنها لعنها فارسية أو افغانية وحررت بأى لسان  
أخاطبها ؛ ولحق بى فى هذه اللحظة زميل فجذبنى وهو  
يقول :

«ما هذا يا أخى ؟ تعطلنا نصف ساعة حتى نحضر  
ونحن واقفون تحت الشمس المحرقة ، وبعد أن نحضر  
يحلو لك الكلام والإيماء . هذا شيء بارد والله !»

فقلت : «ليس هذا ذنبى فقد كنت أؤدى واجب  
الاعتذار . . .»

فقاطعنى قائلا «امتدار ايه يا أخى ؟ لالا .. هذا لا يليق ! لقد شوتنا الشمس . ولن ننتظرك مرة أخرى» .

فتركته وملت الى غيره وهمست فى اذنه

«الا ترى هذه السيدة ؟ الم يرعك جمالها ؟»

فقال : «سيدة ؟ اى سيدة ؟»

قلت : «اى سيدة ؟ هذه يا أعمى !»

وأشرت اليها

فانفجر يقهقه وأنا انظر اليه كالأبله ، ولما رأيت ان ليس لهذا الضحك آخر مضيت عنه الى غرفتى فلحق بى فيها وهو يقول :

«سيدة ايه يا مولانا ! هذا رجل»

فانتفضت واقفا وصحت به مغضبا

«رجل ؟ تقول انها رجل ؟ انا أم أنت الأعمى ؟»

فعاد الى القهقهة ، وقعدت ، ثم قلت له

لقد كلمتها ووجهت اليها الخطاب بضمير الماؤنث فلم تعترض فكيف تزعمها رجلا ؟

قال : «المسألة بسيطة . لم يفهم كلامك لأنه بدوى قح ، وأراهن أنك لم تفهم منه كلمة» .

قلت : «صحيح . لقد حسبته أفغانية»

فابأسم وهو يقول «ليتك ترى هذا الذي حسبت»  
أمرأة حين يمتطى صهوة الجواد ويركضه إلى القتال  
ويرسل شعره المرحل وينفضه ! اذن لرأيت أمامك وحشا  
مرعبا يميت عدوه بنظرة قبل أن يدفن في صدره  
حربته»

قلت : «والكحل ؟»

قال : «هذا سنة»

فلوحت بيدي ومضيت عنه

ظاهرة عجيبة جدا هذه : النجدي المشهور بوعودة  
الخلق في القتال ، يكون في السلم كما رأيت في الحجاز :  
على حفظ عظيم من رقة الحاشية والدمائة واللين والطراوة  
حتى ليستحيل عليك أن تصدق أن هذا الرجل الذي يكاد  
يسيل من اللين ، يحسن أن يركب جوادا أو يضرب بسيف  
أو يقوى على حمل رمح ، وقد رأيناه يفعل ذلك كله فكانما  
ركب الجواد ألف عفريت ، ولا اكنم أنا خفناه !



## فجدة

بحر بليد - هذا هو البحر الأحمر - بليد كالرجل  
الذي تعابشه اليوم فيضحك غدا . والبليد صحبته متعبة ،  
ورفقتة مشقة ، فان حسن الفكاهة ولذتها - كحسن  
الكراهة - في تبادلها ، لا أن ينفرد بها جانب أو ينوء بشقلها  
واحد . وقد ظللنا خمسة أيام نسبح - كالسلاحف - على  
ظهر البحر ، وكانت السفن تمرق بجانبنا كالسهم - أو  
كالأرانب مادمنا نذكر السلاحف ، ونحن نشبطا ونتلكا  
واحسبنا كنا أيضا نتراجع - ونداعبه ونمازحه وندغدغه  
في كل موضع ونناجيه ونناشده أن يتنبه ونسأله أن يتمطى  
ويشد أوصاله ويتحرك ، ولكن هيهات ! لم يشعر بنا  
البحر أو لم يحفلنا وأبت له البلادة أن ينتبه لوجودنا إلا  
بعد أن بارحنا ينبع ! بعد ثلاثة أيام شعر بوجودنا فتشعب !  
فانكفأ بعضنا فوق بعض ، وصارت الرعوس في مكان  
الأرجل ، وأطلت المفعدات من الحلوق وذهبت الكراسي  
تقعد علينا لا نحسن عليها ، وانقلب اظهر ما فينا وأبرز

أعضائنا ، أقدامنا في الهواء فانتقمتم بذلك من جور الرؤوس  
عليها وطول اغتصابها للمراكز الملحوظة .

ولم أر أنا شيئاً من هذا ولكنهم حدثوني بما صنع  
البحر بهم ، فقد كنت نائماً وكان لى أيضاً غطيظ عال  
يخفت صوت البحر على مازعموا ، فجاءنى زميل يقول  
«البحر هائج اليوم»

فانتفضت قائماً وقد فرحت وسررت أن البحر اولانا  
التفاتا وجعلت أروح واجيء بقدر ما أستطيع في هذا البحر  
الضيق الذى يسمونه حجرة النوم وارفع صوتى بقول  
ذلك البدوى الساذج .

والبحر صعب المراس جداً لاجعلت حاجتى اليه !  
ليس ماء ، ونحن طين ؟ فما عسى صبرنا عليه ؟  
ولكن متى يا صاحبنى فانى مازلت فيما اشعر  
على اليأس ؟»

قال . «الم تشعر به ؟»

قلت «ربما كنت قد حلمت - بل أنا على التحقيق  
احلم بالبحر هائجا طافيا عنيفا ، ولكن البلاء والداء العياء  
ياأخى انى أنسى فى الصباح مارأيت فى احلامي .

فقال . «أوه . هذا كلام فارغ ! لقد كانت الباخرة  
فى الليل تلعب هكذا (وأخرج قلما من جيبه وامسك به من

وسطه وجعل يرفع طرفيه على التعاقب فكيف لم تشعر  
بدلك ؟ ان هذا غير ممكن !»

قلت . «عفوا . لقد فاتني نصف عمري على التحقيق  
وأخشى ان يضيع النصف الباقي ونحن عائدون ، ولكنى  
كنت نائما هكذا متعارضا على طول السفينة . فبينما  
كانت اقدامكم انتم ترتفع فى الهواء ورؤوسكم تهبط الى  
حيث تستحق ، كنت انا لاأشعر بأكثر من حركة التنفس ،  
أو بتقلب بسيط . آه ! لقد تذكرت الآن انى كنت اسلم  
بأنى اسبح فى الماء واخبط فيه بذراعى . صحيح .  
صحيح !»

فلم يطق صبرا ومضى عنى . فلبست ثيابى بسرعة  
وعدت وراءه وقد تنبهت فى نفسى كل غرائز السوء ، فلما  
صرت على ظهر السفينة - أو مايسمونه ظهرها وان كان  
فى حبة قلبها - خطر لى انى لم ار ابداع من هذا الجو  
من قبل ، وانه لا عهد لى بمثل هذا التالق فى الشمس  
والجمال فى البحر . واهى شىء فى الطبيعة افتن من منظر  
الجمال الوسنان ! ونازعتنى النفس ان أعرب عن اعجابى  
بكل هذا الحسن فى السماء والارض - أعنى البحر -  
فرفعت صوتى اريد ان أغنى ، ولكنى لم ادر ما أقول  
فأقصرت .

وكنت انظر حولى فأرى رفاقى متشبثين بحديد  
الحواجز ، فدنوت من أحدهم وقلت :

«سبحان ربي القادر ! كيف بالله رددت طفلاً لا تقوى  
على المشي وحده ؟»

قال : «ألا ترى ؟»

قلت . «ماذا ؟»

قال . «ماذا ؟ ألا ترى مقدمة السفينة كأنها سهم  
مسدد إلى الشمس في كبد السماء !»

قلت . «معدرة يا صاحبي . لست أرى إلا ذنبها  
يحاول أن يغطس الأسماك ليصطادها لطعامنا ، ليس هذا  
من البحر ولكنه من الربان . من أين يطعمنا إذا لم يفصل  
ذلك ؟»

وهممت بأن أقول كلاماً آخر أثبت به نظريتي ، ولكن  
زميلاً غيره القى بنفسه بين ذراعي ، فأكبرت هذه العاطفة  
منه وتمثلت في سرى بقول الشاعر .

«أشوقاً ولما يمض لي غير ليلة ؟»

فكيف إذا خب المطى بنا مشراً ؟»

ثم التفت إليه وأنا أرفعه عن صدري الذي سسكن  
إليه وقلت

«أسعد الله صباحك ! جو بديع»

فوضع كفه على معدته وهو يقول «آه بابطني !»  
وذهب يتخطر .



واشتاقوا جميعا الى معانقتى وأنا واقف أمام الباب  
أتلقاهم بين ذراعى مسرورا واهش لهم وأقول للواحد بعد  
الآخر .

«هدىء روعك ! انى مقدر عواطفك نحوى ، ولكن  
لادامى الى العجلة فان الوقت امامك طويل يسمح حتى  
بأن تنظم قصيدة» .

فلايزيد على أن يضع كفه على بطنه ويقول . «آه  
يابطنى !»

فخطر لى أن بهم عضة جوع ! فلما تلقيت آخرهم -  
وكنت قد فطنت الى هذه الحقيقة - قلت له .

«نهارك سعيد . لقد كنت تريد أن تقول . .»

ولكنه قاطعنى وسبقنى وقال وراحته على معدته .  
«آه يابطنى»

فعرفت انى مصيب فى احسالة مظاهر شوقهم الى  
شخصى الضعيف على الجوع . على الرغم من تأكيد أحد  
الزملاء ان البحر هائج وأن موجه «دفين» .

\*\*\*

ولم نخف لرؤية جدة لما شارفناها ، ذلك أن الساعة  
كانت الحادية عشرة صباحا ، والخادم كان يعد المسائدة  
للغداء قبل مواعده ، فقلنا هذه بشرى ، وجلسنا اليها ،

وحضر الطعام فلم نبال جودة كيف تبدو ولم نكثرث لمرئتها  
أين رست السفينة منه ، فقد أقبلنا على الصحاف « نأكل  
ماليحسب الحاسب » كأنما خفنا ألا نقع في جودة على طعام ،  
فرحنا ندخر مايكفى أياما ، وجعلنا نلتهم الشبابت  
( السمك ) والفراريج ( الدجاج ) بلامضغ مخافة ان يدركنا  
وفد مستقبل فيشاركونا ، وصح فينا قول ابن الرومي .

فكاه كالعصرين من دهره      كلاهما في شأنه دأب  
ذي معدة ثعلبها لاحس      وتارة ارنبها ضاغب  
تعلاوه حمى شره نافض      لكن حمى هضمه صالب

وصدق فينا المثل العامي ( وقت البطون تضيق  
العقول ) . فلما صعد الطبيب الى الباخرة ودخل علينا ادار  
عينه فينا فلم ير أحدا رفع رأسه فقال .

« ما شاء الله ! ما شاء الله ! الحمد لله على  
السلامة ! » .

وكانت الأفواه في شغل بما فيها فرددنا بأيدينا  
واستأنفنا العمل فقال .

« صحتكم طيبة والحمد لله » .

« مش بطالة : نحمد الله على كل حال » .

فقال « لعل البحر كان هادئا » .

فلم يسمع سوى صرير الأضراس ، فازتد مسرعا ،  
وأكبر الظن انه أندر قومه :

«أكل يتامى مالهم كاسب» .

فقد خف الى الباخرة وقد كبير من شيوخ جسدة  
وأعيانها - جاءوا ، كما أرجح ، لينظروا بأعينهم كيف  
نفترس الطافي ونغوص وراء الرأس ، ونعمل أضراسنا  
في الجامد ، ونعب في الذائب ، ولكننا عجلنا قبل مقدمهم .  
وفرغنا من هذا الشأن قبل ان يضعوا رجلا على سسلم  
الباخرة ، فلما صعدوا اليها ألفونا جلوسا الى المائدة ،  
ولكن المائدة لم يكن عليها شيء ، ولم يكن يسدو علينا ان  
من آثار الفارة التي شهدنا الطبيب ووصفها لهم على  
التحقيق ، فنهضنا لاستقبالهم في وقار وأبهة ورحبنا بهم  
وانطلقنا نتحدث معهم ونستخبرهم من جدة والمطر الذي  
سمعنا به ، وهم يجسونا بعيونهم ويستدرجوننا ، ونحن  
هيئات ! فانخدعوا وشكوا فيما رواه الطبيب لهم .

وكانت السماء قد جادهم منها هاضب سسحاح .  
وأمطرهم كما لم تمطرهم منذ أربعين عاما على قولهم .  
فقلت : «أعوذ بالله» .

فقال أحدهم : «بل حمدا لله وشكرا» .

واستبشروا بنا وتفاءلوا خيرا بقدومنا ، وأنسناهم  
السرور بالمطر هول ما سمعوا عن كراتنا على الطعام .  
وأشرقت وجوههم بعد شحوب وتفتحت نفوسهم لنا بعد  
أن كاد يقبضها الدكتور عنا بما صورنا لهم . وانحدروا الى  
الزوارق البخارية بين عبارات الترحيب والتأهيل الصادقة

وكان جبارى فى الزورق اميرا نجديا محرما وفى يمينه  
بندقية ، فلم رافع الى جيرتها وقربها من صدغى ، فقلت  
له فجأة :

« هذا فلان يسلم عليك »

فاضبطر ان ينقل البندقية الى يسراه ليصلا فح  
صاحبى ولصقت به حتى لادع مكانا تعود اليه اذا فكر فى  
تحويلها الى حيث كانت .

ولو ان الزورق سار فى خط مستقيم الى « الرصيف »  
لبلفناه فى ثلاث دقائق ، ولكنه اضطر ان يدور بنا حول  
الميناء فقطعنا المسافة فى خمس وعشرين دقيقة ، لان  
مدخل الميناء مكتظ بالصخور والشعاب الحادة التى تقطع  
الحديد كالسيف . وقد فكرت الحكومة فى اصلاح الميناء  
فخطر لها على ما علمت احد امرين ان تطهرها وتعمقها ،  
وهذا باهظ التكاليف ، او ان تبرز بالميناء فوق الصخور  
وهذا ايسر واقل كلفة . وهناك رأى ثالث سمعت به  
ولا ادرى الى اى حد ينظرون اليه على انه اقتراح جدى ،  
وهو ان تبني الى جوار جدة مدينة جديدة على البحر  
يكون ساحلها سهل واخلى من الوعر ، فان انشاء مدينة  
جديدة ايسر واقل نفقة وتعبا من اصلاح مدينة قديمة  
بهدمها شيئا فشيئا واقامتها من جديد على مقتضى مطالب  
العصر فضلا عن اصلاح الميناء وهو وحده مشكل . وكان  
يستقبلنا على الرصيف قائم مقام جدة الشيخ عبد الله رنسا

الزيتى ولقيف من الأعيان ؛ وسيأتى الكلام عليه فيما بعد  
فصعد بنا الى بناء فيه موظفو الميناء وجلس معنا فى  
الشرفة الى أن قرب الزورق الثانى فاعتذر وخف الى  
استقباله . وتركنا مع المسنر فيلبى وحقى افندى سكرتير  
القنصلية المصرية وفريق من الأعيان ولم يكن لهم جميعاً  
حديث الا هذا المطر العجيب الذى سبقنا وكانت تحيتهم  
لنا «جئتم بالغيث» . ولهم العذر ، فان بلادهم صحراء  
جرداء ليس فيها نهر او جدول واحد ، واعتمادهم فى  
معاشهم على المطر والآبار ، فاما المطر فلا سلطان لهم  
عليه . وامره بيد الله واما الآبار فقد كان عددها كبيراً  
وكانت العناية بها شديدة ، ولكن الاتراك لما اضطروا الى  
الانسحاب من بلادهم فى ابان الحرب العظمى ، خربوا  
أكثرها حتى لخفت معالم عدد ليس بالقليل منها ، وعلى  
أن الآبار مهما كثرت لا تسد حاجات البلاد ، لأنها تجف  
وتنشف ، ومن هنا فكرت الحكومة السعودية فى الآبار  
الارتوازية وفى استخدام الآلات الحديثة لاستنباط الماء من  
جوف الأرض ، واستوردت عدداً منها واتخذتها بالفعل فى  
المدينة ومكة ، وهذا خير مايسمى الى الآن ، مع العناية  
بالعيون وتمهدها بالاصلاح .

وليس فى جدة فنادق ينزل فيها القاصدون اليها ؛  
وانما ينزل الناس فى بيوت الأهالى ، فمن شاء استأجر  
منزلاً بأسره ، ومن كان لايسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة ،  
على مثال «البنسيون» فى مصر مع فروق طبيعية . اما

نحن فكنا ضيوفا على الحكومة ، وكان العزم ان ينزلونا جميعا فى بيت واحد ولكن الأعيان تزاحموا علينا فقسمونا ثلاث فرق : واحدة فى بيت الشيخ محمد نصيف وهو من وجوه جدة وكبار تجارها وأصله مصرى وله مكتبة خاصة هى أكبر مثيلاتها فى الحجاز ، وفى داره ينزل على ماسمعنا جلالة الملك عبد العزيز حين يكون فى جدة ، والفرقة الثانية فى بيت الشيخ الفضل ، وهو كاسمه من أهل الفضل والوجاهة ، والباقون ستة كان من حسن حظى انى أحدهم ، نزلوا فى دار حسين افندى العوينى ، وهو سواب سورى الأصل نزع الى جدة لأسباب قومية واشتغل فيها بتجارة واسعة ربيحة ، وسيجىء عليه كلام .

ولم نكد نستقر فى بيوتنا حتى قيل لنا : الى بيت القائمقام ؛ فنهضنا وركبنا السيارات الخاصة التى أفردت لنا ، وذهبنا نخوض بها شوارع جدة ، راقول نخوض وأنا أعنى ما أقول ، فقد خيل الى انى فى البندقية وأننا احوج الى القوارب والزوارق - أو الجوندولاس - منا الى السيارات . وكانت العجالات تفوص فى المساء الى النصف . واشد ما عجبت حين نظرت فاذا سائق السيارة صبى لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره . فخفت أن يقلبنا فى الأوحال أو يدخل بنا الحوانيت أو يحاول أن يصعد إلحائط بالسيارة . ولكنسه كان حاذقا وكان كأنه يرى الطريق تحت الماء فيجنب الحفر ويتقى أن يرجنا . هذا على أن رأسه لم يكن ظاهرا لنا لصفر جسمه ، فلا أدري

كيف كان يبصر الطريق ، وكأنى به قد حفظه عن ظهر قلب فليس يحتاج أن ينظر بعينه . وكان بارعا في محاوراة الماء والروغان من الأوحال والمهابط ، فلم يسعنى إلا أن أسأله :

« هل تعرف الطريق الى مكة ؟ »

فقال : « أى نعم . متى تذهبون ان شاء الله ! »

قلت : « وفصيح أيضا ! » ورقص قلبي أعجابا بمهارته وذلاقة لسانه وحدثتني النفس أن أحطف ثلاثة أو أربعة من أمثاله أخفيهم في حقيبتى وأعود بهم الى مصر ، فما رأيت مثل براعتهم وخفتهم ونشاطهم .

واستقبلنا القائمقام على باب داره . وتلكأت أدبر عينى فى البيت من الخارج فارتد الى وتناول ذراعى ومضى يصعد بى السلم ، وهو شيخ بلغ التسعين أو أربى عليها ، وأنا شاب لم ابلغ الأربعين ، ومع ذلك كان يشب على السلاليم وأنا أرفع نفسى بجهده واضمح ؛ وصعود السلم فى البيوت الحجازية عمل شاق ، لأن الدرجات عالية جدا ، والبعض أعلى من بعض واضيق ، وبعضها طولى أو اقل قليلا - الى أنفى ، وقد قلت وأنا ألث بعد أن بلغنا الدور الثالث حيث حجرة الاستقبال : لقد نجحت فى الصعود ، ففى وسمى الآن أن أشارك فى الألعاب الأولمبية . ولم اكن أدري الى تلك الساعة ان الهبوط أشق بفضل هذا الارتفاع الذى يؤثرونه للسلاليم .

وان التنازل اذا لم يحذر خليك أن يهبطها مدحرجا عليها .  
وقد وجدت بالتجربة أن آمن طريقة للصعود هي الزحف  
على اليدين والرجلين .

واستفريت كثرة الأبواب للبيت الواحد ، وتعدد  
السلالم ، فقد تكون صاعدا في وديعة الله وحفظه ، وإذا  
أمامك سلمان يذهب كل منهما في ناحية فلا تدري أيهما  
تأخذ : هذا أو ذاك ؟ وخطر لى في أول الأمر أن سلما  
يؤدى الى حجرات الرجال ، وان الآخر يفضى الى مساكن  
السيدات ، لولكن خطر لى أيضا أن الاكثار من السلالم  
المضلة والأبواب المحيرة ، قد يكون اثرا من أيام القلق  
وعدم الاطمئنان ، أيام كان الناس يهاجمون فى دورهم على  
غرة ، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنسون فى سر بهم  
فلا يبعد أن يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز  
المحير ليتسنى لهم أن يجدوا لهم ولدويهم منخرجوا او  
مهربا اذا اقتحم عليهم الدار عدو ، أو لعل الخاطر الأول  
هو الأصح فيما أدرى ولا وجدت من يدري . ومهما يكن  
من ذلك فان الدار هنالك داران على الحقيقة ، وهى  
تبندى واحدة ثم تتشعب وتتعدد ولا بد لهذا من حكمة  
خفيت على . أما السلالم فلا حكمة لارتفاع درجاتها الى هذا  
الحد المرهق الا أن تكون حكمة التزهيد فى مكاببتها مرة  
ثانية . وما أكثر ما كان يخيل الى ، اذ تنزل من احد  
البيوت ، اننا نهبط من سلم غير الذى صعدنا عليه ،  
حتى خطر لى أن أرسسم بالقلم علامات على الجدران  
للتثبت وقطع الشك باليقين .



وبيت القائم مقام انموذج حسن لغيره من الدور التى  
رايناها مع تفاوت بينها فى السعة ، وطرازها جميعا  
شرقى عتيق ، واقرب ما يشبهه فى مصر البنى القديمة  
في احيائنا الوطنية الصميمة من مثل الجمالية والخرنفش .  
وللبيت بوابة تفتح وتغلق -- وتغلق أكثر مما تفتح --  
وفيه باب صغير يسمونه فى مصر « الخوخة » ثم البناء  
فالسلم الذى وصفناه لك ، ثم طبقات يغلب أن تكون  
اثنين أو ثلاثا ، وحجر الاستقبال فى الطبقة العليا ،  
وغرف المائدة فى التى تحتها ، وقد يجتمعان فى طبقة  
واحدة فتفرد الأخرى للنوم ، والأثاث فاخر والدوق  
فيه سليم ، ليس فيه ذلك البذخ الذى ينم عن الخيلاء  
والذى هو أشبه « بالاعلان » ولا تلك الكرازة التى تقبض  
النفوس وتصد القلب . وكرم العربى ليس ككرم سواه  
فهو يكرمك ويبدل لك كل ما يدخل فى طوقه بل فوق  
ما فى مقدوره ، ثم كان الذى يصنع هذا سواه ، من  
فرط السكون والوداعة وقلة التظاهر ، وقد كنت كلما  
دخلت بيتا يختلط على الأمر ، فأحسبه بيت رجل آخر  
غير الذى أعرف أنا مدعوون عنده ، ذلك أن مضيفك  
لا يثقل عليك بالحفاوة ولا ينفرد بشحيتك ولا يبرز نفسه  
أو يؤكد وجوده ؛ ولا تكاد تستقر فى مجلسك حتى  
يشيع فى نفسك الشعور بعدم الكلفة وبانتفاء القيود وبأن  
حريتك فى حديثك وجلستك وفيما تشتهى نفسك ، غير  
محدودة ، وكان القائم مقام على سنه وتقدمه وسمنته

وأبهته يخف الى «الشيشة» ويجتسو حياها ليصلحها  
أو يصنع فيها مالا أدرى فلست من هواتها ، وكان  
الواحد منا بهم بأن ينهض ليصده عن ذلك تنزيها له عن  
هذه الخدمة ، ولكن شيئا في عينيه كان يقعد بنا ويفلنا  
عن الحركة<sup>٢٠</sup> ولم أر فى حياتى وجها ناطقا بطيب الخيسم  
وأريحية النفس وبالعطف الشامل والحب الذى يريد أن  
يفيض على العالم كوجه هذا الرجل ، وقد انصرفنا من  
بيته بعد أول زيارة وقد عشقناه وشغفنا به ولهجنسا  
بذكره ، فلما قال لنا المستر فيلبس . ان القلوب مجمعة  
على حب هذا الرجل واحترامه لم نستغرب فكأننا كنسا  
نعرف هذا من قبل . وقد كان قائمقام فى عهد الحسين  
وابنه على المعزولين ، فلما جاء ابن سعود أقره فى منصبه  
كما أقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذين  
لا معنى لهما ولا دافع اليهما سوى الهوى ، وليس كل  
ما يروع المرء من القائمقام دماثته وسجاجة خلقه ، فان  
نشاطه وحيويته شيء عجيب ، لا لمن كان فى مثل سنه  
العالية بل لأى انسان فى أى سن ، ثم هو الى هذا واسع  
الدراية محيط بأخبار الأمم وسياساتها ؛ عارف بنياتنا  
ومساعيها لطيف الحديث حلو المحضر ، يزيد وقارا  
قليل من الصمم ، وسنه أبدا ضاحكة وعينه براءة ، فما  
أشوقنى لأن أراه وهو ثائر الغضب .

وكان قد أعد لنا غداء ولكننا قلبناه عشاء فقيل .  
« حسن . الساعة الأولى اذا »

فملت الى جارى وقلت .

« سنموت هنا جوعا »

فقال بلهجة الفرع . « كيف ؟ لماذا ؟ »

قلت : « ألم تسمع ؟ العشاء الساعة الأولى .  
نحن الآن فى الساعة الأولى بعد الظهر فسننتظر اثنتى  
عشرة ساعة او اكثر حتى ناكل مرة أخرى . هذا صيام  
ولسنا فى رمضان وأنا محتج »

قال : « مهلا مهلا ؟ انها الساعة الأولى بالحساب  
الشرقى أى بعد المغرب بساعة » .

فاقترح واحد أن نصلح ساعاتنا وان نجريها على  
الحساب الشرقى ، فسألته كيف نفعل ؟

قال : « تعتبر ان الشمس تغيب الساعة السادسة  
— صيفا أو شتاء . هكذا يفعلون هنا . المغيب الساعة  
السادسة ( افرنجية ) بلا تغيير على مدار السنة وعلى  
هذا فاجر حسابك » .

فحرت لأن الشمس تغرب فى الوقت الذى تشاء ،  
لا فى الساعة السادسة كما يريد اهل الحجاز ، وكانت  
ونحن هناك تستحسن أن تغيب فيما بين الخامسة  
والسادسة ، وهى فى الصيف تتلکأ أحيانا الى السابعة  
فلم ادر ماذا أصنع ؟ أكون الشمس غاربة وأقول أنا —  
مجاراة لساعات الحجاز — انها لا تزال طالعة ؟ ثم كيف

أدقق بين رقم الساعة والوقت كما يبدو لعيني ؟ الحق  
أن هذه كانت عقدة .

ولما صرنا في بيوتنا قلنا نزور القنصلية ، ونؤدى  
واجبنا ونحیی بلادنا فيها ، وكان المطر قد عاد ينهمر .  
فسألنا حسين أفندى العوينى « هل القنصلية بعيدة  
من هنا ؟ »

قال : « لا . . ( ممطوطة ) ليست بعيدة ولكن  
ولكن المطر شديد والطريق أوحال .

وقام الى التليفون - أو الهاتف كما يسمونه أحيانا  
- ليدعو السيارات لتقلنا الى القنصلية وليس للتليفونات  
أو للهواتف أرقام تتميز بها بل عليك أن تدق الجرس  
فيجيبك « المركز » - وهو يقابل عندنا السنترال -  
فتطلب منه أن يصل ما بينك وبين فلان فى بيته أو دكانه  
أو مكتبه أو عيادته - كما تشاء ويبطىء عليك العامل  
فتناديه : « يا فلان ماذا جرى ؟ اعطنى بيت فلان واصنع  
معروفا » ذلك أنك تعرف عامل التليفون - لا عاملته -  
كما يعرفك ، وكان المطر قد أفسد أسلاك التليفون وعطل  
المخابرات ، فوقف حسين أفندى العوينى ساعة يعالج  
الكلام - ساعة كاملة بلا ملل أو ضجر ومن غير أن يفكر  
لحظة فى الجلوس أو الاستراحة .

وأخيرا بعث بخادمه فجاءت السيارات وركبناها  
وصاح حسين أفندى بالسائقين .

« الى القنصلية المصرية » .

فدارت السيارات وتحولت امام البيت ، ثم جرت  
امتارا ووقفت .

وقيل . « انزلوا ! تفضلوا ! » .

قلت . « ماذا ؟ هل اصاب السيارات عطب او  
تلف » ؟ .

قالوا : « بل وصلنا ! »

وصلنا ؟ نعم . فما كان بين البيت والقنصلية التي  
ركبنا اليها بعد لاي ، سوى عشرة امتار !

وقلت لما صارت الساعة السادسة والنصف  
( افرنجي ) « الآن فانهضوا الى العشاء في بيت  
القائمقام » .

ف قيل . بل لا يزال الوقت فسيحا ولم تستوف  
الساعة الاولى دقاتها قلت . ولكنها فعلت وقد غربت  
الشمس منذ ساعة تماما .

قالوا . كلا لم تغرب الا منذ نصف ساعة .

فاسلمت امرى لله ولساعات الحجاز التي لا تعباً  
بنهار او ليل والتي يجرى الزمن على وجهها ما لا يجرى  
في بلادنا على وجوه ساعاتنا .

وليس في نيتي ان اصف كل وليمة حضرتها او دار

دخلتها فان هذا لا آخر له ، فقد كنا نتغذى في بيت  
ونتناول الشىء في بيت والعشاء في ثالث ، وربما  
تغدينا في جدة وتمشيينا في مكة ، او بالعكس . ولكنى  
سأذكر القليل الذى يدل على الكثير وينبئ عنه . فقد  
سمعت ان فريقا من المصريين لا يصدقون ان اهل الحجاز  
يعرفون الأكل على الطريقة الحديثة فهؤلاء اقول : ان  
الحجاز ليس مجعلا من مجاهل آسيا او افريقيا ، وانه  
وطن الاسلام واليه يحج المسلمون من اقاصى الأرض  
وادانيها وانه بلاد متحضرة سوى انها فقيرة ، والفقير  
لا يمنع الاناقة ولا يحول دون التهذيب ، ومن الغرور  
الذى لا يشرف صاحبه ان يتصور المرء ان الحجاز ، لانه  
على البحر الأحمر ولانه ليس مصيفا او مشفى للمترفين  
منا وبغاة المراقص وطلاب الملاهى ، يجب من اجل ذلك  
ان يكون مستوحشا وعلى الفطرة الاولى . وليس فى  
الحجاز فنادق او مطاعم عامة ، ولكنا دعينا فى كل  
مكان حتى فى قلب الصحراء وتحت الخيام - الى موائد  
على الطريقة الغربية عليها من الآكال ما يندر ان تقع عليه  
العين او يدوقه اللسان حتى فى مصر المتحضرة .



وهم لا يراعون فى الجلوس الى الموائد ترتيبا معيناً  
وكانوا معنا على الأقل أحذق وأدق مجاملة من أن يتوخوا  
ترتيباً ، فكان من شاء يجلس حيث يشاء ، حتى لا يشعر  
أن غيره مفضل عليه أو مقرب دونه أو مختص بإيثار .

والقوم في الحجاز لا يأكلون سوى مرتين في الأربع والعشرين ساعة : مرة حوالى الساعة العاشرة والثانية حوالى الرابعة أو الخامسة . واحسب ان جو البلاد هو الذى اقتضى هذا التخفيف ، ولكنهم توخوا مثل عاداتنا في مصر من اجلسنا . وغيروا مألوفهم وجروا على مألوفنا .

والأطعمة التى تناولناها فيها صنعة حسنة وذوق يجمع بين الأسلوبين العربى والتركى . وقد يحدث ان يقدم لك بعد بضعة ألوان طعام حلو فتحسب انك قد قاربت النهاية ويسرك ذلك فرارا من كظ المدة بألوان عدة لا آخر لها واذا بهم بعد الحلوى يكرون الى اللحوم والخضر وما الى ذلك على نحو ما كان يجرى هنا في مصر في الأعراس على الطريقة التركية القديمة .

واحب ان اعين القارئ على تصور حالة جدة وعمل البلدية فيها . فاقول ان الطرق غير مرصوفة كما هي في مصر ولكنها نظيفة على الجملة ، وفد أصارها المطر بركا وبحيرات ، وهو مطر مأل صهاريج الثمر كلها ، ومن بين هذه الصهاريج واحد سمته — بحسابهم — مائتان وأربعون ألف « صفيحة » فاذا اعتبرت ان « القسربة » تعادل اربع « صفائح » كانت سعة الصهريج ستين ألف قربة ، وقد قيل لى ان الماء الذى في الصهاريج يكفى موسم الحج ، وانما ذكرت الصهاريج ومثلت لسعتها ليتسنى للقارئ ان يكون لنفسه فكرة عن المطر وما صنع ،

فقد هدم بيوتنا وقوض سقف بعض الأسواق ، ولم يبق بيت لم يقطر الماء من سقفه والبنى هناك ضعيفة ، وقد قضينا الليلة الأولى في جدة فاصبحنا وقد انقطع المطر فانطلق عمال البلدية ينزحون الماء ويجرفون لأوحال ، فلما جاء العصر عادت الطرق نظيفة مأمونة . واحسب انهم ضاعفوا الهمة من اجلنا ، ولكنه نشاط على كل حال .



والأغنياء هناك لا يدعون الفقر ولا يكتمون مالهم وان كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البلخ والتجارة سوقها رابحة مع الغرب والشرق . والاحاديث صريحة والألسنة طليقة ، وفي هذا دلالة على الاطمئنان ، وقد كان الناس على ما علمت في العهد السابق يخفون أموالهم ويتظاهرون بالمتربة ورقة الحال خوفا من الابتزاز او الاقتراض الذي هو في حكم الاغتصاب والمصادرة ، أما الآن فيقول لي بعض الأصدقاء : ان الحكومة في آخر العام قد تقفز خزائنها فتحتاج الى المال فتقترض من الأعيان حتى اذا جاء موسم الحج ردت اليهم ما اقترضوها بلا ربا .

وقد سألنا — في طريقنا الى مكة — سائق السيارة وهو شاب يحدثنا انه كان أحد أفراد الفرقة الموسيقية في جيش الحسين ، من الفرق بين المهديين فكان جوابه



إن الأمن مستتب على أحسن حال وأنه ما من أحد يجرؤ  
أن يسرق أو يمد يده إلى شيء في الطريق .

فقلنا له : وای العهدين خير .

فقال : « لكل زمان دولة ورجال » .

فصرفنا السرور بتمثله بالشعر والتعليق على ذلك  
عن سؤاله عما يعنى .



## بين جدة ومكة

الأرض - في جدة - دائرة : هذه حقيقة لم  
يسعني ، بعد يوم واحد ، إلا أن أسلم بها وأقطع  
بصحتها . وقد تكون الأرض هناك كروية أيضا - أو  
كرية ، فما أدري أيهما الذي لا غبار عليه - بل هي  
كروية أو كرية في بعض المواضع ولا سيما في الشوارع  
ولها محاور حقيقية لا خيالية وإن كانت لا تدور عليها ،  
ولكنها دائرة على التحقيق ؛ إذا كان هناك شك بقي ،  
كرويتها ، على الأقل كلها . وما أسرع ما فطنت إلى هذه  
الحقيقة الجغرافية الخاصة فقد كنا مدعويين إلى الشاي  
في وزارة الخارجية ، فلما دنا الموعد أشرفت من النافذة  
فلم أر السيارات ، فرددت البصر إلى التليفون فإذا هو  
لا يزال في مكانه ، ولكن صاحب الدار لم يكن حاضرا ،  
والتليفون في الحجز يتطلب مهارة كانت تنقصنا ،  
ويحتاج إلى معارف لم يتسع الوقت للاحاطة بها ، وكان  
الخادم قريبا ولكني استحييت أن أطلب معونته لئلا  
يتوهمنا بعض الهمج من إفريقيًا فسألت الله العون

ومضيت الى التليفون ودققت الجرس مرة ، فلم يجبنى  
أحد ، فدققته ثانية فلم يجبني بمخلوق ، فبرزت  
« الشنكل » وأنا يائس ، أقول لنفسي ان من لا يحفل  
الجرس أولى به ألا يكثرث « للشنكل » وعادت الدق  
والهز مرات ، ثم وضعت السماعة وجلست الى جانبه .

فقال لي أحد الحاضرين :

« لم سكت ؟ دق له ! »

قلت : « اظل أدق الى المغرب ؟ »

قال : « لا ياسيدي . دق الجرس وناده ! »

فراقني هذا ونهضت مرة أخرى وعدت الى الجرس  
أدقه وأقول :

« يا أخانا ! يا حبيبى ! يا سيدى ونور عينى وتاج  
راسى ! »

فلم يعجبه الفصيح الصريح من اللغة ، فقلت  
أخاطبه بالعامية لعله لها أفهم .

« يا أخينا ! انت يا شيخ انت ! ياللى جوه !  
تبحت حصى ووجعت قلبى . رد يا أخى بقا ، الله  
يقطعك ! » .

فلم تنفع هذه الرقية ، وهممت بالقعود مرة أخرى  
فقال صاحبي :

« لا لا . ناده باسمه يا أخى ! » .

قلت : « حسن . وهل مفروض في المصري الذي  
يأتى الى جدة ان يعرف اسم حامل التليفون ؟ لا بأس ! »  
ووضعت فمى على البوق وجعلت أصيح بما خطر لى من  
الأسماء لعل واحدا منها يوافق الصحيح .

« يا محمد . يا ابا بكر . يا عمر . يا عثمان . يا علي .  
يا معاوية . (لزملائي : يظهر انه أعجمي) يا ناصر خان .  
يا زهير . يا شترية . انطق قبحك الله ! (هل فيكم من  
يحضره اسم آخر فقد اطار هذا اللعين محفوظي ؟  
لأناس) يا بطليموس . . »

وهنا قاطعنى صاحبى وانتزع السماعة منى  
ووقف يقول

« يا مركز . . يا مركز . . »

فسألته « هل هذا اسمه ؟ »

فلم يعبأ بى ومضى يقول .

« اجول لك . يا مركز . أعطنى القناعة . . نعم  
القناعة . رجاء » فوصله بشركة القناعة للسيارات .

ولكنى لم أركب سيارة ، لأن الجهد المقيم الذى  
بدلته امام آلة التليفون أحوجنى الى الرياضة فقلت  
أتمشى الى الخارجية فهي قريبة منا . فوافقنى اثنان  
وخرجنا وسرنا على بركة الله . فمیل مع الطريق حيث  
يميل ، ويصف بعضنا لبعض ما شاهد الى الآن وماذا

كان وقع ذلك في نفسه ، وطال الأمر علينا وخيل الى  
إننا ندور ونعود الى حيث كنا ، فخطر لى أن أسأل  
لنهدى ، فانتظرت حتى لقينا فتى فقلت له :

«هل لك أن تدلنا على وزارة الخارجية ؟»

فحملق في وجهى وقال .

«أيش تقول ؟»

قلت : «وزارة الخارجية التى فيها حضرة  
صاحب المعالي الوزير ...»

فجذبني أحد الزميلين وقال .

«يا أخى أنت قين ؟»

فغاضبني ذلك واستثار عنادى فقلت :

«اسكت أنت من فضلك . قل لى يا صاحبنى .

صف لى الطريق»

فقال كلاهما مغمغما قدسدت انه الوصف الذى

اطلبه وأشار بيده فقلت لصاحبى .

«هيا بنا . لقد عرفت منه الطريق»

فقال أحد الرفيقين :

«ولكن ماذا قال لك ؟»

قلت : «ان ما قاله لى لا يهم . ويكفيك انى فهمت

مراده» .

فقال : «ليتنى على يقين من ذلك . فان الوافسح  
اننا نسير فى دائرة . وقد رايت هذا المسجد اربع مرات  
على الأقل» .

فأكدت له ان هذا كذب لا يلىق ولا يشرف بلاده  
التي يمثلها هنا ، وان كان لم يعد الحقيقة فيما قال .  
وصار لابد من اجتناب الرجوع الى هذا الشارع اذا  
اردت ان لا يثمت بى صاحبي . فملت بهما الى طريق  
جديد لم نضرب فيه من قبل واذا بنا بعد ثلاث دقائق  
نعود الى المسجد .

فقال صاحبي بلهجة الشامت المنتقم :

«ماقولك الآن ؟ اليس هذا هو المسجد بعينه ؟  
هذه خامس مرة اراه فى ثلث ساعة» .

قلت : «محال . انه ليس اكثر من المساجد فى  
هذه البلاد وهى جميعا متشابهة .

واسكته بهذه المغالطة وعمدت الى اول رجس  
صادفنا بعد ذلك فسألته عن الطريق الى وزارة  
الخارجية ، فصاح بى صاحبي :

«مادمتم تقول «وزارة الخارجية» فلن يفهم كلاسك  
احد . يا اخي انت فى الحجاز لا فى مصر» .

وهكذا ظللنا نسال والناس لا يفهمون عنا واخيرا  
يشسرون بأيديهم فنمضى ونكر الى حيث بدأنا .

فاقتنعت بحقيقتين : أولاهما أن الأرض هنا دائرة في كل ناحية . وقد أسلفت القول في ذلك : والثانية أن على من يسأل الناس عن الطريق أن لايسير الى حيث يشيرون .

والدهنى أنا مررنا بالخارجية وكنا نسأل الناس عنها ونحن واقفون أمام بابها ! وفي آخر مرة كنا على أفريزها ، لأن سيارة كانت مقبلة فخفنا أن ترسنا عجلاتها بالوحد فصعدنا فوق الأفريز لتتقى ذلك وإذا بها تقف وينزل منها بعض زملائنا .

وقد رايت «برج بيزا» المائل ، من نافذة وزارة الخارجية أو دارها أو لأدرى ماذا يسمونها هناك . وكنا نتناول الشاي جماعات وجماعات على موائد صغيرة ، وكنت قريبا من النافذة فنظرت فإذا مأذنة مائلة جدا ، فأطلت النظر اليها وأنا أتوقع أن تنقض ، فقال لى جارى :

«ماذا يروقك ؟»

قلت : «ألا ترى هذه المأذنة المائلة ؟ ان امسرها عجيب . ولأدرى ماذا يمنعها أن تسقط ؟ لعلها لا تريد أن تزعجنا» .

فنظر جارى وعجيب ، ومن حقه ذلك ، فقد كان انحرافها شديدا ، فسألنا واحدا من أهل الحجاز عنها فابتسم وتنحنج وقال كلاما لا يقنع ، واعتذر بأن المباني



في الحجاز ليست متينة أو حسنة جميلة كمباني مصر ،  
فبيننا له أن المثانة والجمال لاشان لهما ولا قيمة ، وأن  
المسألة أن هذه المأذنة لا يمكن أن تظل ذاهبة في الهواء  
الآن مسقطها خارج القاعدة ، فإذا كانت مع ذلك ستبقى  
قائمة فتلك معجزة ولاشك ، ومن حق الحجاز حينئذ  
أن يباهى بها برج بيزا المائل بل أن يدل بها عليه .

ولما صرنا في الطريق مرة أخرى رفعت عيني إلى  
المأذنة فإذا هي مستقيمة لا ميل فيها ولا انحراف ،  
فرجعت أعدو إلى الخارجية فإذا هي تبدو من النافذة  
مائلة ، فالتحدرت إلى الشوارع وأجلت النظر في بناء  
الخارجية فلم أر شيئا يلفت النظر فحرت ، وأخيرا بعد  
أن حاورتنى المأذنة وخايلتنى حتى كاد يطير رأسي  
حللت اللغز . ذلك أن جدران الغرف غير متساوية  
الارتفاع فأرضها مائلة ، فإذا جلسنا فيها بدت لنا  
الاشياء منحرفة .



وخرجنا يوما نتنزه على امتداد الشاطئ فبما  
وراء جدة ، ولجدة سور قديم لاخير فيه اذا كان المراد  
به الحماية ، وكان هناك - في السور - باب كبير  
للدخول والخروج ، ومنه يأخذ المرء أحد الطريقين إلى  
مكة أو المدينة ، فلما جاءت الحكومة السعودية رأت أن  
بابا واحدا لا يكفي ، ففتحت بوابتين كبيرتين : واحدة  
للدخول والثانية للخروج ، وأقامت بينهما مخفرا يسأل

الرائح والغادى ويرقب الحركة بينهما ؛ والأمير تافه لا يستحق الذكر ، ولكنه بعض التنظيم الذى أدخلت الحكومة السعودية وارتاح به الناس ، وهم هناك يضيفون هذا الى أمثاله ويتخذون من ذلك كله شواهد على اتجاه النية نحو الإصلاح ، بقدر المستطاع .

ورأينا على مسافة نصف ساعة من جدة بيوتا بعضها من الشعر ، والبعض جدرانها - ان صحت التسمية - من جوانب صفائح الفاز ، وسقوفها كذلك من الخيش أو هذه الصفائح ، وبعض البيوت من اللبن ، وخلال هذه البيوت الفخم والجمال ، وحولها الكلاب ، ولكن المطر هدم البيوت المبنية وأبقى على الشعر والصفائح . وقد وقفنا نتأمل هذه البيوت المتقرضة وخيل الى وأنا أصدق فيها أنى صرت للشعر العنبرى أحسن فهما ، بعد أن رأيت بعينى ما الطول الدوارس ، وهو احساس ظل يلزمنى وأنا فى الحجاز فكلمنا رابت منظرنا من الجبال أو السهول والأودية أو الكشبان أو المراعى أو الدور أو الخيام ، زدت شعورا بصدق تطوير العرب لحياتهم فى أشعارهم ، ولم أستفرب شيئا مما كنت أمله وأستثقله من لجساجتهم فى وصف الطاول والاسفار والرواحل والولع بذلك وإشاره وتقديمه ، وصار لهذا وما اليه معنى جديد عندى ومساغ الى نفسى ، وقد كنت حين أطلع شعر العرب - قدماء أو مولدين - أتخطى هذه الأوصاف اذ كنت لا أجيد فيها

متعة ولا أراها تنقل لى صورة لها قيمتها فى نظرى ،  
فالآن أعود الى هذا الشعر الذى كنت لأطيقه فأرى  
الحياة تدب فيه وتفيض منه ، وانما أعنى شعر القدماء  
المقلدين من المولدين أو المحدثين الذين يقسولون على  
السمع والمحاكاة .

وفى السهل الواقع شرق جدة ثكنة للجنود واسعة  
رحيبة ، ومركز للاسلكى وحظيرة للطائرات . وليس فى  
هذا كله ما يستوقف المرء ، فما منه شىء غريب ، ولكن  
هناك أيضا على مقربة من الثكنة فضاء رحيب مسور سد  
بابه بالحديد ، وكان الناس يفدون اليه زائرين بل  
حاجين ، لأن فيه على المشهور هناك قبر حواء ، وقد  
هدمه السعوديون ولم يبقوا من قبابه شىئا ، ومنعوا  
الناس أن يزوروه . وحدثنى بعض من شهدوه قبل  
تقويضه أن طول القبر أربعون قدما ، وأنه كانت هناك  
عدة قباب صغيرة على رأسها وصدرها الى آخر جسمها ،  
وكان الاعتقاد السائد أن أمنا حواء بهذا الطول ، ولهذا  
مدوا قبرها وذهبوا به طولا وعرضا ، فإذا صبح هذا ،  
فقد كانت أمنا اذا مهولة ، ولا عجب أن تلد كل هذه  
الخلائق وأن تكون أم هذه الاناسى كلها فى الشرق والغرب  
فليت من يدرى كيف كان آدم ؟ لاشك أنه كان أفحس  
وأهول ، ومع طولهما وعرضهما خدعتهما الحياة  
وأخرجتهما من الجنة . فليست العبرة اذن بالطول ! وفى  
هذا عزاء لى عن قصر قامتى ! .

ولم أر في الحجاز امرأة ولا بائعا متجولا ولا شيخا  
هما يقوم على الراحتين ، ولا جنازة ميت ، فأما المرأة فلم  
استغرب الحجاب المضروب عليها ، فنحن في مصر لا يزال  
منا من يحجب المرأة ويوصد عليها الأبواب . وأما الباعة  
المتجولون فلا حاجة بأحد اليهم في مدينة صغيرة لم تتباعد  
أطرافها ولم تفسح فيها المدنية ولا يزال الزمن يدور فيها  
متمهلا متباطئا . ولعل لم أر مقعدا أو سطيحا أو كسيحا  
لأنى لم أبفهم حيث يكونون ، ولكنهم على كل حال لا يرون  
في الطرقات وعلى أبواب المساجد وأفاريق البشوارخ .  
ولكنى استغربت أن اقضى ستة أيام في الحجاز فلا تقع  
عينى على جنازة ميت ولا أسمع أن واحدا مل هذه الساجلة  
وآثر عليها الآجلة ، ولا أدري ماذا يفري الناس هناك  
بالبقاء ويحبب اليهم الدنيا وهى بلا قسع ، على حين  
يستطيعون أن ينتقلوا في طرفة عين إلى الفردوس  
وقصوره وحوره وولدانه وأنهاره من لبن وعسل وخمر!  
ولقد اضطررت أن أسأل من ذلك فضحك الرجل وربت  
لى كتفى وهم أن ينصرف عني ، ولكنى تعلقت به وسألته .

«اصدقنى . هل أنتم تموتون في سركم ؟»

قال : «فى سرنا ؟ ماذا تعنى ؟»

قلت : «أعنى أنكم تموتون أو لاتموتون» .

قال : كيف لانموت ؟ ان الموت حق

قلت : «لست أراه حقا هنا»

قال : «استغفر الله العظيم . يارجل ؟»

قلت : «استغفر الله ألف مرة . ولكن لماذا لا تموتون ؟»

فقال مبتسما . «هل تكره لنا الحياة ؟»

قلت : «لا أكرهها لكم ، ولكنى أكره أن نموت دونكم لماذا يكون الموت حقاً علينا وحدنا ؟»

وقد أبوا أن يموت منهم ولو واحد فقط ، ليقتنعنى ، حتى ذلك الطبيب الذى كان يقتلنى بمصليه ، لم نهن عليه نفسه ولو أكراما لخاطرننا أو فى سبيل التدليل على صحة النظرية - فهى فى الحجاز نظرية فقط - القائلة أن الموت حق . كان وظيفة الطبيب أن يميت ولا يموت .



وسيدكرنى الحجاز دائما بأن عصاى قطعت الطريق بين جدة ومكة - قطعته ساعة كاملة لائنقص دقيقة بل ولا ثانية ، وردت الناس من الجانبين ، ووقفتم صفين من الناحيتين متقابلين على أقدامهم إلا من شاء أن يضرب فى طريق آخر ويسير على نهج جديد .

وشرح ذلك أنا فى اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ

الطويل ، صاحب شركة القناعة للسيارات ، وقد كان على عهد الملك حسين مديرا للجمارك وكان صاحب مال وفير فأتى عليه الاقتراض منه ، فلم ينقذه الا انقراض حكم الحسين وابنه على ومجيء العهد السعودي بالامن والطمانينة وحرية التجارة . فاتجسر بالسيارات وعاد فوقف على رجلية . وكان المقرر أن نركب الى مكة بعد الغداء مباشرة ، ولكن الأكل طال والألوان تعددت فنسينا مكة وذهلنا عن كل شيء ، وأخيرا قمنا عن المائدة آسفين متلفتين متلكتين ، وذهبننا الى بيوتنا فخلعنا ثيابنا ونضونا كل ماعلى أجسامنا ولففناها - أعنى أجسامنا - فى مشامل - كالبشاكير - غير مخيطة ، حتى أقدامنا خلعنا أحذيتها واعتضنا منها السباغيات ؛ وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد تدخل فى بعضها الأصابع ويلتف البعض حول المفاصل ، ورمينا طرايشنا ، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقائق وتوكلنا على الله .

وركبنا سيارة لأدري من أى طراز هى ، وأنما الذى أدريه أنها كانت فخمة وجديدة ، وأنها لم تخرج الا فى يومنا ذاك ، وقلنا للسائق سر على بركة الله وبقوة البنزين انذى خلقه الله ، واعلم اننا سننتعش عند سمو الامير فى قصر جلالة الملك باذن الله ، وأن عليك أن تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ثم ارتداء الثياب .

فقال : «الله معنا . أن السيارة جديدة وليس في  
رسمي أن أسرع بها لئلا تتلف» .

فقلنا . «فلتلف . فان موعده الأمير لا يمكن  
أرجاؤه» .

ومازلنا به نلح عليه ونحاوره ونداوره حتى أطلقها  
ومضى بسرعة خمسين كيلو . وجزنا أول محطة في الطريق  
ومضينا نبغي الثانية وإذا به يطل ثم يقف ويلتفت إلينا  
ويقول .

«حريقي . انزلوا»

ففتحت الباب من ناحيتي وأسرعت فنزلت ، ويظهر  
أن عصاي التي لم أعن بها من فرط الفزع ، سقطت إلى  
الأرض ، وصار في وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة أن  
ننظر إليها وأن نرى الدخان صاعدا من بين عجلاتها ،  
والسائق يهيل عليها الرمل عوضا عن الماء فانقطع الدخان  
وشرع يعالجهما ، وكانت سيارتان قد أدركتنا ونزل  
زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض أفندي المصور  
أن يرسمنا ونحن محرمون .

ولأطيل . ركبنا السيارة واستأنفنا السير على  
مهل . وأنسيت العصي لأن الخوف من احتراق السيارة  
صرفني عنها ، وجعلت وكدي طول الطريق أن أخرج  
رجلي من نافذة السيارة وأنظر إلى العجلة من ناحيتي  
وإن أشم ، لعل دخانا صاعد فأنبه السائق .

والطريق الى مكة طريقان واحد للسيارات وهو حسن ومكبوس بما نسميه «وابور الزلطف» وقد رأينا (الوابور) يستريح عند سفح الجبل ، والآخر للجمال والمشاة ، على يميننا ويسارنا . والجمال ألتى رأيتها صغيرة وهي أشبه بالبعران في بلادنا ، وأحسبها كذلك لضعف المرعى وقلة القوت ، وهي تسير قوافل قوافل ، وقد عددت خمسين جملا في قافلة ، وكانت تحمل بضائع شتى في الصناديق والأكياس أو الفرائر ، وليس معها سوى طفل واحد هو كل حرس هذه القافلة المغربية .

وليس أحلى ولا أفنى من منظر الاطفال حين يحاولون ركوب الجمل ، والطفل لا يبرك الجمل حين يريد أن يصعد الى ظهره ، وإنما يعمد اليه وهو سائر ويتعلق بذبله ويتخذ من هذا الدبل حبالا أو سلما أو مرقاة مستعينين بتقديمه يخطو بهما على فخذي البعير كأنهما جداران ، ثم اذا هو فوقه . وامتنع من ذلك وأبعث على الدهشة أن ترى بعيرا على سنامه رجل وعلى عسيبه - عظم الذنب - طفل والعسيب منحدر وعظمته حادة فكيف يقعد عليها الطفل وماذا يمكنه فوقها ؟ ساقاه يقبض بهما على الجانبين .

وبلغنا الشميسة قبيل الغروب بدقائق - اذا اعتبرنا ساعتى وهى بالحساب الغربى - وقبله بأكثر من نصف ساعة اذا اعتبرنا أن الحجازيين يحتمون على الشمس أن تنيب في الساعة السادسة لا في منتصفها .



وهناك في الشميسة استقبلنا وفد طويل عريض من مكة  
جاء ليرحب بنا ويحتفي بمقدمنا ، وبينما نحن نحدث  
دعى مدير الشرطة أو لأدرى من هو الى التليفون ،  
فاستأذن وذهب ثم عاد يسأل :

«هل لأحدكم عصي ؟»

قلت «نعم أنا لى عصا ولكنها والله فى السيارة .  
تركناها فيها ، لأنى لأدرى هل يجوز أو لايجوز أن يحمل  
المحرم عصا» .

«قال : «ما أوصافها ؟»

قلت : «وماشأنك أنت بالله ؟ هى عصى والسلام» .

قال : «لا لا لا ، لقد وجدت عصا فى الطريق قرب  
الزغامة فقطعت على الناس السبيل» .

فضحكت وقلت «أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون  
ولاأخرج على النظام ولاأعرف قطع الطريق» .

فلم يجد حتى بابتسامة ، وضماعت على النكتة فى  
هذا البلد الجاد ، وقال : «أبحث عنها من فضلك فان  
الطريق مقطوع ولأأحد يروح ولأأحد يقدو» .

فهرولت فى مشاملى الى السيارة فلم أجدها  
فعدت وقلت له :

«هى عصاى قاطعة الطريق ، فاسمح لى أن أعتذر

بالنيابة عنها» فمضى عنى الى التليفون ، وخفت اذ  
ياخذونى بها ويجزونى بما صنعت فان للقوم هنا شريع  
غير القانون المدنى ، فعدوت وراءه واسررت اليه وهـ  
يتكلم فى التليفون :

«اذكر من فضلك ان الله تعالى يقول فى كتابه المنزى  
«ولا تزر وازرة وزر اخرى» .

فلم يزد على ان التفت الى وقال :

«هل نردها الى جدة او ندرلك بها فى مكة» .

فقلت : «لست اريدها والله فانها فاجرة كما ترى ،  
واخشى ان ينزو براسها خاطر آخر ، أفلا يمكن دفنهم  
فى الرمال مثلاً ؟» .

فقال للتليفون لالى : «أرسلها مع الشرطة الى  
الضيافة» .

فصحت به : «لا لا . ردها الى جدة من فضلك  
فحسبى ما صنعت» .

فقال لمخاطبه فى التليفون : «هل ردها الى بيت  
العوينى فى جدة . رجاء» .

ثم التفت الى وقال : «هيا بنا فقد تأخرتم» .

ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى وما صنعت ،

فقد كنا في الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء ينزود به جوف هذه السيارة الذي يغلى ، نصيح بأحد الواقفين هات ماء» .

فلايتزحزح ولايدنو منا بل يقول وهو واقف مكانه .  
«تفضل»

فينزل السائق ويجيء منه بما يريد . وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الدوق فقيل لنا بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شيء من الأدوات أو مما تحمل السيارة فيتهم الرجل بالسرقة . وجزاء السارق هناك قطع اليد ، وقد آمن ابن السعود الناس على ارواحهم واموالهم بشيئين . بقطع يد السارق وبما يسمونه التصبيحة .

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وقد قسا ابن السعود في أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا لى أن رجلا جاءه كيس فيه بن وقال له . «هذا كيس بن وجدته في الطريق» .

فسأله : «ومن أدراك أن فيه بنا ؟ جسسته أو فتحته ونظرت فيه ، ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن لأخفيتنه ولم تظهره ولم تسع به الى . كلا ! حتى الجس لايجوز . اقطعوا يده .

ومن أجل ذلك يقع الناس على الشيء في الطريق

فلا يقربونه أبداً ، بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا  
إلى طريق آخر غير الذي فيه هذا الشيء المطروح حتى  
يُمر شرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه ، أو يَمروا هَمَم  
بالشرطى فيبلغوه . وإذا لم يقبوا على صاحبه نسروا في  
«أم القرى» اعلانا تحت عنوان «لقطات» .

أما التصبيحة ، فشيء آخر . تكون هناك عشيرة  
ضرت بالسطو فيندرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة .  
فان كفت وتركتم الناس آمنين واستقامت على الهدى  
فيها والله الحمد ، والا همس في أذن واحد من قواد  
جيشه أن يصبحها فيذهب الرجل في فرقة من الجيش  
من غير أن يفضى إلى أحد بغايته ومقصده ، ويجنب في  
طريقه إلى العشيرة مواضع الماء ، ويضرب بجيشه في  
الصحراء التي لا تطوُّها قدم ليظل أمره خافيا وغائبا  
مكتومة ، ويقع على العشيرة في الفجر فيصلى بهجياته  
ثم يطلق عليها رجاله فيصيحونها وهم يصيحون :

«هبت هبوب الجنة . أين أنت يا باغيها»

«خيالة التوحيد أخوان من أطاع الله» .

فلا يبقون ولا يلدرون .

ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب  
المدينة مذ دخل الحجاز . لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجاه  
إلى تصبيحة أخرى .

والطريق الى مكة واد غير ذى زرع ، وعلى جانبيه  
جبال شتى الشكول متفاوتة العلو ، ومناظرها توسع في  
الروع أنها غاصة بالمعادن المختلفة ، ولست أعلم أن أحدا  
درس طبيعتها وفي الطريق محطات أو استراحات ، يجد  
فيها المسافر القهوة والشاي ، ويستطيع أن يبيت فيها  
إذا أدركه الليل أو التعب أو كلت مطيته ، وكبراها بحرة  
في منتصف الطريق ؛ ولها سوق دكاكينها من الخيش  
والخشب ، ووراء السوق على الجانبين البيوت الساذجة  
فيها عيادة أنشأتها الحكومة أو مستشفى صغير لمن يقعد  
به المرض في الطريق ، من الحجاج أو الأهالي . وفي كل  
محطة مخفر وتليفون . ولم أستغرب هذا الطريق  
الموحش ولم أجد فيه جديدا ، فاني في مصر أعيش في  
رقعة من الصحراء والى جانبي الجبل .  
وقد دخلنا مكة بعد العشاء .



## فتح مكة

دخلنا مكة لا أدري متى ؟ - بعد العشاء أو بعد المغرب ، في الظلام والسلام - فما في الوسع أن يعتمد المرء في الحجاز على ألوان النهار والليل لمعرفة الوقت ، أو يركن إلى الشمس أو حتى إلى القمر ، وقد انتهت بعد ثلاثة أيام إلى أساءة الظن بالشمس والإيقان باختلال دورتها . وهل كان في مقدوري أن أكذب ما جمعت عليه ساعات الحجاز الجديدة وأن أصدق هذه الشمس القديمة وحدها ، ولم تكن ساعتى على يدى فقد تركتها مع ثيابى لما لففت نفسى في مشامل الأحرام ، فلا عجب إذا كان الأمر قد اختلط على قلم أمى يميز بين النهار والليل .

بعد العشاء إذا أو بعد المغرب - كما تشاء فكله ليل - شارفنا مكة فنفتح السائق في بوقه تنبيهاً وزجراً للناس عن الاحتشاد في طريقه ، وفتحت أنا الشسباك

الأنظر فلم تأخذ عيني شيئاً ، حتى رمال الطريق وصخور  
الجبال لفها الظلام في سملته ، فاضطجعت وقلت ان لى  
شأننا غير شأن اصحابى ، هم يدخلون مكة دخول الغريب  
عنها فمن حقهم ان يتطلعوا ويشرفوا وينظروا ويتأملوا  
- اذا وسعهم ذلك - ولكنى انا ابن هذه البلاد ، بل ابن  
هذه البلاد ، بل ابن مكة بالذات ، فان جدتى لأمى مكية  
زوجوها وهى بنت عشرين سنة رجلاً فحلاً من اهل المدينة  
فنشزت فطلقوها منه ثم احتملوها الى مصر بعبد وفاة  
أبيها وخراب بيته وتجارته فتزوجت جدى ، ثم ان أبى  
مازنى مثلى ، وقد انحدرت اليه هذه «المازنية» ثم الى  
بعده على نحو ما انحدرت اليها «الآدمية» ، وهذا كله  
مفسر في «سندوق الدنيا» فيرجع اليه من شاء من طلاب  
هذه الأنساب العريقة . وقد أسلفت القول على قبر  
حواء جدتى العليا ولست أكم القارىء أنى تأثرت جداً  
وان الدمع غلبنى حين الفيت نفسى - أنا الغريب البعيد  
عن وطنى وأهلى واصحابى وعن كل من يعنى بى أو يكثرث  
لى ، واقفاً أمام قبر جدتى ! وصحيح ان القرابة بعيدة ،  
ولكنها على كل حال ، من رحمى ، أو أنا على الأصح من  
رحمها ، ولم يخالفنى ظل من الشك في ان هذا قبرها  
على التحقيق ، فقد حن الدم في عروقى اليها ، وكان  
حنينه بالفريزة التى لا تخطيء ، وان يكذب الدم فانه  
ليس بماء ، وشمرت بأن معين حبنى البنوى لها قد جاش  
واضطربت أعماق أعماقه وطفى وفاض من مقلتى فاستندت



الى حديد الباب واسبلت الدمع . نعم بكيت أسففا ،  
لأن جدتي لم يطل بها العمر حتى ترانى ، كلا . وممسا  
ضاعف أسفى انى انا أيضا لم يفسح الله فى أجلى حتى  
كنت أراها - فماتت قبل أن يخطر لأبوى أن يجيئنا بى  
ببضعة آلاف من السنين كان من السهل أن تطوى ولم  
تكن الدنيا تخسر شيئا لو أنها لم تكرر عليها . بضعة آلاف  
فقط كان يمكن اختصارها أو اختزالها على نحسب ما ،  
لنتمكن الجدة والحفيد من التعانق وشفاء غلة الشوق  
المتبادل ! ولكن على المرء أن يحتمل متاعب الحياة وأن  
يتجلد على صروف الأيام . ولعل ما صارت اليه جدتي  
المسكينة المحرومة هو الخير ، ولو أنها عاشت الى اليوم  
ولم تمت ، لما أتيت لنا فرصة للخروج الى الحياة ، وفى  
هذا بعض العزاء لنا .

ورأيتنى أتلفت - بقلبي فقط - وأنا داخل مكة  
كانما أبحث عن بنى مازن أهلى وعشيرتى ، واشتقت أن  
أعانق القبيلة كلها بكل ما فيها حتى الخيام والأجمال  
والخيل والسيوف والرماح ، وأن أضمها الى صدرى  
وأن أريح راسى على صدرها وأن أذرف دموع الفرح  
بلقائها بعد طول النوى وبعد الشقة ، وعجبت كيف لم  
يخرج منها لاستقبالى والترحيب بى ، وسساورتنى  
المخاوف عليها ، وأسفقت أن يكون ابن السعد قد رماها  
«بتصبيحة» ! فان قومى - عفا الله عنهم - من ذوى  
المروءات ، ولست أعرفهم أطاقوا قط أن يدعوا مسافرا

مثقلاً بالأحمال رازحاً تحت الأعباء ، وابن السعود يكره  
هذا التخفيف عن الناس ، ويؤثر أن يدعهم ينوؤون بما  
عليهم وما معهم ، ولا يجيز هذا الضرب من التعاون .  
واقسمت — في سرى — إذا كان (الأخوان) « ١ » قد  
(صباحوا) قومي ، ليكونن لى معهم شأن آخر .

ولما صارت بيننا وبين مكة خطوات قال واحد :

« ألا تفتحون النوافذ ؟ »

قلت : « ولماذا ؟ » .

قال : قد يكون هناك جنسد لتحييتكم فيحسن أن  
تبرزوا في التحية » .

فقلت وأنا أرتد الى الوراء وقد أحسست أن وجهي  
صار كالجمرة وإن كانت المرأة التي امام السائق لم ترنى  
شيئاً ، لأنها بعيدة عني ومنحرفة ايضاً :

« عفوا ياسيدي . لاتخجلوا تواضعنا . ارجو . الح  
... اصرفوا الناس عنا ... » .

وكنت أريد أن أقول كلاماً آخر ولكنني نسيتُه لأن  
صيحة مزعجة انطلقت وسكت آذاننا على أثرها قعقة  
سلاح ، فخفت وسمعت أسناني تخبط وهي تصطدم .  
ثم ملكت نفسي وأسعفتي الظلام فابتسمت لما علمت أن  
هذه تحية يتلقانا بها الجيش على باب مكة .

---

(١) الأخوان لفظ يطلق على التجديين .

وانطلق البوق يرد الناس عن الطريق ، ومضى  
السائق اللعين يخطف بسيارته كأنه يفر بها من الموت ،  
ولا يمهلنا حتى نتأمل الناس المحتشدين على الجانبين  
والدكاكين المضاعة ، بمصابيح البترول - أو الزيت  
فما أدرى - والطريق طويل يشق مكة من بابها الى آخر  
الكعبة ومن ورائها الى السوق ، وقد قطعناه بالسبابة  
في سبع دقائق ، ثم وقفت بنا أمام دار الضيافة على  
«المسعى بين الصفا والمروة» وأمام باب السلام ، فنزلنا  
واقبل علينا ناس كثيرون يسلمون علينا ، فقلت هذه  
فرصة ، ولعل بعض قومي بينهم أتوا مستخفين فملت  
عليهم ، أو على الأصح ، شبيت اليهم وتعلقت بأعناقهم  
«طوقتهم بدمامي وساقى أيضا - ذراعى حول أعناقهم  
وساقى حول صدورهم - وأهويت عليهم أقبليهم والشم  
أفواههم وخذودهم وأنوفهم وآذانهم ورؤوسهم ، وكان  
كل منهم يتلقى مظاهر شوقي بما تستحقه وتستوجبه  
من السرور والجلد ثم يحطنى على السلم .

وملنا الى غرفة رحبة نصفها ميضأة ، والنصف  
الآخر تصعد اليه بدرجتين وهو مفروش ومعد للجلوس  
وفي وسطه مكتب عليه تليفون ، فهمنا بالجلوس فقبل  
بل توضأوا لتطوفوا وتسعوا وتتحللوا من الاحرام ، فان  
سمو الأمير ينتظركم . فتلفت حسراى ثم الى الدرجتين  
ورحت أفكر في طريقة محترمة لهبوطهما فلم بفتح الله على  
بحيلة ، وكان اخوانى في خلال ذلك قد سبقونى الى

الوضوء فدنوت من حرف الدرجة ورأيت عبدا طويلا  
فأشرت اليه فدنا مني ، فأنحيت من مرقبي العالي كاني  
أريد أن أهمس في أذنه شيئا تم غافلته وتعلقت به ودرت  
وتركت نفسي أنحدر على هذا العمود الآدمي الى الأرض  
بسلام .

وفدم لي أحد العبيد «قبقابا» فنظرت اليه ثم  
هزئت رأسي وسألته :

«ما هذا ؟»

قال : «قبقاب للوضوء»

قلت : «ولكن كيف البسه ؟»

قال : «أخلع نعليك وأدخل هذا بين أصبعيك» .

و «هذا» عبارة عن اسطوانة دقيقة من الخشب  
المنجور عمودية على سطح القبقاب ، يدخلها المرء بين  
أصبعيه ثم يذهب يزحف أو يجر القبقاب ؛ على الأرض  
ولا يرفعه عنها لئلا تفلت الاسطوانة من بين الأصبعين ، إذ  
لا سير من الجلد له يمسك ظهر الرجل ، فقلت بل الحفى  
خير من هذا وقعدت اتوضأ .

وللحرم عدة أبواب ، ينحدر منها المرء الى ضحن  
رحيب جدا يدور بالكعبة ، كصحن الأزهر الا أنه أوسع  
كثيرا ، وأرضه رمل حصي ، ولكنه حول الكعبة مبلط ،  
وكذلك ما بين الأبواب وهذا المطاف . وقد تسامنا شيخ

المطوفين ومضى بنا الى مقام ابراهيم - جدى ايضا -  
عليه السلام ووقف بنا وصفنا بين المقام وزمزم وقال  
صاوا ركعتين ففعلنا ثم نهضنا وبدأ الطواف ، وشرع في  
العمل ، وكنت أتمنى لو تريت قليلا - دقائق فقط -  
لأنظر الى الكعبة في الليل على ضوء الكهرباء ، ولكنه لم  
يعبأ بذلك وطوى ذراعيه الى صدره كأنه يتهيأ للجري ،  
وتلك هي الهرولة ، ومضى يدمسو ونحن نقول وراءه ،  
وكنت وأنا أهرول موزع النفس ، عيني الى الكعبة وإلى  
الطائفين مثلنا وهم جماعات جماعات وكل جماعة تهرول  
وراء مطوفها وأذني الى هذا الشيخ المطوف الذي كان  
يأبى إلا أن ينطق عبارات الدعاء بأقصى مايسستطيع من  
البطء والوضوح وبأكبر مايسعه من اللحن أيضا ، كأنما  
حسبنا بعض الجاويين أو الهنود ولم يدر - سلمحه الله -  
أنا .. ولكن المفارقة لاتليق . غير أن لحسنه كان يمزق  
أذني ويفسد على تبثلي في الطواف ، وقد اذكرني جماعة  
«التراجمة» في مصر الذين يحشون رءوس السائحين  
وزائري الآثار المصرية بالأغاليط التاريخية والسخافات  
الفاضحة ، وكما عالجت مصر منكل التراجمة والادلاء  
بانشاء مدرسة لهم كذلك أنشأت لهم الحكومة السعودية  
معهدا لتخريج المطوفين ، وحسنا فعلت ، فان من رأينا  
من المطوفين أعاجم .

ووددت لو أتيج لي أن أتمهل عند الحجر الاسود  
فانه عجيب ، ولكن الزحام كان شديدا : ولسنا بأحق من

سوانا بذلك ، وهو أسود فاحم ووضئ مشرق ، وحوله  
إطار بيضاوى من الفضة والمره يحتاج حين يقبله أن يدخل  
وجهه فيه لأنه - أى الحجر - مجوف . وأحسب أن السنة  
مئات الملايين من الخلق قد لحسته وأكلته ، أو ، لا أدري ،  
لعله كان هكذا أبدا ، وقد قلت وأنا أفعل ما فعلت الملايين  
قبلى وما ستفعل الملايين بعدى ، كما قال عمر ابن الخطاب :  
«اللهم انى أعلم أن هذا حجر لا يضر ولا ينفع ولولا أنى  
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله ما فعلت »

والركن اليمانى حجر آخر فى زاوية كزاوية الحجر  
الاسود ، ولسكنه أشبه بحجر الصوان أو الجرانيت سوى  
أنه الى الخضرة أميل ، ومن عجيب أمره أنه يبدو للطائف  
على بعد متر أو اثنين كأنه من المعدن أو الفضة . وقد  
نازعتنى نفسى مرارا أن أترك الصنف وأتخلى عن المطوف  
وأدنو منه لأتأمله ، فلما أذن لنا المطوف أن نفعل فى الطواف  
السابع كنت أسبق الإخوان اليه .

والحق أقول انى أحس أن طوافى هذا لم يحسب  
لى فى عداد الحسنات التى يسجلها أحد الملسكين ، فقد  
أفسده المطوف بلعنه كما أسلفت القول فى ذلك ، وكنت  
أنا من ناحية أخرى أرد عيني بجهده واضح عن التطلّع  
والنظر فيما حولى ، وهكذا خرج كل من اخوانى بقصر أو  
قصور فى الجنة وخرجت أنا كما دخلت وليس لى سوى  
مشملين على بدنى احتفظت بهما للذكرى ، فلا بد اذن من  
عمرة أخرى أو حجة أعوض بها ما فانى .

وقد انتهيت وأنا ألمس الحجر الاسود أن اقتطع منه  
قطعة أحملها معي وأعود بها ، فقد خيل إلى انه عنبر  
متجمد لا حجر ، ونجحت بي هذه الشهوة حتى لأنستني  
أن ليس على بدني سوى مشامل الاحرام فذهبت اتحسس  
لعل معي مبرة أو شبيثا يصلح للقطع ، ثم أفقت والتفت  
واذا بأحد أصحابي يمد يده بمنديل لمسح به الحجر ،  
فعجبت من أين جاء بالمنديل وكيف حمله وأين خبأه ، وقد  
كانت يداه فارغتين ، وتأملتته وإذا بالخبيث يلبس تحت  
المشامل ثيابه الصوفية .

وقد قلت له لما عدنا الى دار الضيافة :

« هات جنيها ياسيدي . جنيها ذهباً . »

فحملق في وجهي وقال : « لماذا ؟ »

قلت : « جنيها نشتري به ذا القرنين »

قال : « ذا القرنين ؟ لست أفهم »

قلت : « خروفا ذا قرنين طويلين متلوين نطلقه عليك

فينطحك بهما ثم نذبحه ونطعم الفقراء لحمه » .

قال : « ولكن لماذا ؟ »

قلت : « جزاء وفاقا بما زورت على الله ياخبيث !

أتلبس ثياب الصوف تحت المشامل مغالطاً ربك في قلب

الحرم المقدس ثم تتجاهل وتحاول أن تهرب من الفدية ؟ !

هات لنا ذا القرنين عجل ! »

ولكنه لم يزد على أن قال : أوه ! «وضحك»

وملنا الى زمزم وهي بشر في الحرم عليها بناء له باب ، فسقونا منها ماء غير سائغ ، ودخلنا البناء لنغسل رءوسنا ولا أدري لماذا ، واقترح بعضهم علينا أن نستحم بمائها فلم نر لهذا موجبا ، فن ماءها بارد وجو مكة في الليل غير دافئ ، وعلى قم البشر سور من الحديد عال أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحصلو لهم أن يلقوا بأنفسهم في البحر ليغرقوا ويمسوتوا شهداء على ظنهم ويذهبوا من قاعها الى الجنة مباشرة بأخصر طريق .

وخرجنا لنسعى ، بين الصفا والمروة ، وهو طريق بينهما مهدته الحكومة السعودية وعبدته ورصفته تسهيلا للنسعى ، وطوله نحو كيلو أو أقل ، ولا بد من قطعه سبع مرات : فلما شرعنا نسعى جاءنا البشير من قبل الأمير أن في وسعكم أن تسعوا بالسيارة اذا كان التعب قد أدرككم فرفعت يدي بالدعاء لسمسموه وابتهلنت الى الله أن يطيل عمره وأن يلهمه دائما - على الأقل ونحن في الحجاز - مثل هذا التيسير على الناس وعدوت الى السيارة فصاح بي الدليل الذي يسعى بنا أو معنا على الاصح :

« الى أين ؟ »

قلت : « الى السيارة . يا صابر . تعال بسرعة »

ولكن صابرا سائقنا كان ملكيا أنش من الملك ، فقد



أبى لنا أن نسعى بالسيارة وقال إن هذا لا يجوز ، وإن  
المسعى غاص بالساعين وبالنساء والرجال والأطفال ، فليس  
ما تبغون من الانسانية فى شيء • فخرجنا وتركنا السيارة  
بعد أن استويننا فيهنسا • وأصاح القارىء بانى لعنت  
«صابرا» هذا فى سرى ، وإن كنت لم يسعنى إلا احترامه ،  
وهو شاب فى العشرين من عمره حدثنا فى الطريق أنه  
مصرى الاصل وإن لأسرته نحو مائة عام فى الحجاز ، وقد  
كان على أيام الحسين أحد رجال فرقة الموسيقى الحربية ،  
ولكنه الآن سائق سيارة فى شركة القناة ، وأبرز صفات  
هذا الشاب الجرأة والاستقلال مع الادب الوافر ، وحديثه  
ممتع وفى لغته فصاحة وفى صوته عذوبة وفى عينيه  
حلاوة ، ولو كان الغناء مباحا لكان الأرجح أن نسمع منه  
شدوا مطربا ، وقد كان يخاطب كبراء الحجاز فى جدة  
ومكة وفى الطريق بينهما مخاطبة الند للند ويشعل أمامهم  
سيجارته ويذهب يدخن ويناقشهم ويحاجهم ويعترض على  
بعض ما يقولون ويسلى بالصواب فى رأيه كأنه ند لهم ،  
وكانوا هم يتقبلون منه ذلك ولا يرون فيه شذوذا ، ولا يبدو  
عليهم أثر لدهشة أو الامتعاض ، فالأمر اذا مألوف •

ولكنه حنبلى مستبد ، أبى لنا أن نسعى بالسيارة ،  
فلما أصر رسل الأمير وألحوا ، ترك السيارة وأبى أن  
يسوقها فتولاها غيره ، وأحسب صابرا قد حققها علينا  
وأسرنا لنا فقد تخلى عنا بعد أن عدنا الى جدة ، وعلى أن  
هناك حاقدا غيره ، هو زكى باشا • سعى على قدميه مع

بقية اخواننا وسعيثنا نحن بالسيارة فجعل بعسدها يشنع علينا ويشهر بنا - مازحا - فى كل خطبة له ، بل جعل يتخذ من ذلك دليلا على ان الاسلام لا ينافى التقدم ومظاهر المدنية الحديثة ، وما كان هذا الدليل ينقصه ولكنها الرغبة فى التشهير بضعفنا واعياننا والمباهاة بقوته وجلده على الرغم من سنه .

وقصصنا شعرات من رموسنا ولبسنا ثيابنا ، أما أنا فأخطأت وقصصت الشعرات بعد ارتداء الثياب ولم اتنبه الى خطئى الا بعد أن صرت فى نصف ثيابى ، فكتمت الامر ، وفى مرجوى الا يفطن اليه الملك الموكل بى ولا أدري أيهما ولكن هذا الاختلاف على الاختصاص شأن يعنى الملكين وحدهما ولا دخل لى فيه ولست مكلفا أن أفضه - غير أن أحد زملائى أبى الا أن يلاحظ ذلك ويرفع به عقيرته ويصبح مسسجلا على هذه المخالفة ، فأحسست بالملكين جميعا يتسحران وينتزعان الريش من جناحيهما لتدوين هذه الملاحظة ، فكلمت غيظى وقلت وأنا أتكلف الابتسام : « ياسيدى ان العمرة فسدت كلها من قبل ذلك ، وقد اعتزمت أن أعوض ما فاتنى فى وقت آخر »

ثم التفت الى يسارى وقلت بصوت عال لكاتب السيئات :

« وعلى أن الذنب فى خطئى راجع لغيرى : الى المطوف أولا ثم اليكم ، فقد كان واجبا على العارف يعلم الجاهل » .

واسترحمت بعد أن أدليت بحجتي وشرحت عذري  
وحركت كتفي اليمنى تنبيهاً لمسجل الحسنيات .



وقصر الملك في طرف من المدينة ، وهو طويل  
عريض ، مبني بالآجر ، وله جناح يجديد هو الذي دخلناه ،  
وفي فناءه حديقة صغيرة وقد استقبلنا الجيش على الباب  
وحياناً لا أدري كيف فلسست إحصائياً في حركاته .  
وصعدنا إلى حجرة عظيمة طولها - على ما أقدر - لا أقل  
من خمسة عشر متراً في نحو عشرة أمتار ، مفروشة  
ببساط من المخمل ، وعلى مدارها مقاعد عالية شبيهة  
«بالكنب» المصري ، ومكسوة «باليوت» والمخمل ، وكذلك  
«براقع» الستائر وفي وسطها صنف من العمد يحمل  
سقفها ، والجدران مكلسة ، وكان الأمير جالساً في الصدر  
فنهض لاستقبالنا ، فسلمنا وجلسنا وجاءت القهوة ، ومن  
بعدها الشاي أو الشاي .

والأمير في الرابعة والعشرين من عمره ، وهو نائب  
الملك في الحجاز كما أن أخاه الأكبر الأمير سعود - ولي  
العهد - نائب الملك في نجد ، وثيابه ثوب أبيض  
«كالجلابية» المصرية فوقها سترة «جاكته» رمادية عليها  
العباءة السوداء وهي رقيقة النسيج شفافة ، وعلى رأسه  
«الحرام» والعقال . وهو قسيم وسيم حلو النظرة عذب  
الابتسامة وديع ، ولكن نظرته حين يصمت تبدو حزينة ،

وفى تقوس شفثينه وذقنه مرارة لا تخلو من تصميم ، أما  
القوة فأيتها أنفه الأقنى وجبينه العريض . وأغرب ما فى  
وجهه اجتماع اللين والصلابة والرقّة والقوّة ، واختلاط  
ذلك كله وتسرب بعضه فى بعض ، وهو أنطق وجه رأيت  
بجميع هذه المعانى ، غير أن المرء لا يسعه إلا أن يشعر أن  
هناك زاوية وراء هذا المحيا الناطق يغيب فيها الأمر  
خواطره وأراءه الخاصة ويحجبها عن العيون الفاحصة ،  
وقد كنت أتوقع - قياسا على ما شهدت فى جدة - أن يكون  
قصر الملك أفخم رياشا وأفخر أثاثا ، فإذا به يمتاز بالنظافة  
التامة والبساطة الكاملة أما الأبهة فقد تركها لمن شاء من  
شعبه .

وعرفة الطعام كابسطة ما تكون : حجرة مستطيلة  
تسع نحو مائة : فى وسطها مائدة طويلة ساذجة صفت  
اليها الكراسى الخيزران ، وأدوات الأكل تامة ، والآنية  
كلها من طراز واحد ، والملاعق والسكاكين وما اليها من  
الفضة ، وقد تناولنا الطعام على الطريقة العربية وقضينا  
فيه أكثر من ساعة نتفסקه عليه بالحديث ، ولم يكن ثم  
نظام معين أو ترتيب معد للجلوس بل قعد من شاء حيث  
شاء ، وقد احتفظت بقائمة الألوان ، وهى مطبوعة على الآلة  
الكاتبة وفى نشرها دفع لكثير من الأوهام الصبيانية .

« شورية بالبزاليه

دجاج رستو بالبوريه

بامية  
حلا كريمة بالكاكاو  
بريك  
دجاج بالكري  
بدنجان اسود بالنزيت  
حلا كيك بالشمس  
رز بالشعرية  
فاكهة »

وقد علمنا من سموه ان الخضر تزرع فى وادى  
فاطمة - وسيجى ذكره - من مثل البامية والملوخية  
والبادنجان والخرشوف وما الى ذلك ، وفى الوادى فواكه  
كالوز والليمون الحلو فضلا عن الملح ، وقد كان سموه  
يذكر ذلك بلهجة المياهاة ، ولفتنا بصفة خاصة الى  
البادنجان ، ولكنى لم استمرئه لأنه غليظ سميك الجلد  
غير سائغ الطعم ،

ولا أطيل على القارىء ، ذهبنا بعد الطعام الى حجرة  
أخرى للجسوس ، مؤتة على طراز حجرة الاستقبال  
الكبرى ، ولكنى استغربت أن أرى فيها دولابا مما يتخذ  
للثياب ، وأديرت علينا القهوة وأكواب الشاي ، واشتهيئنا  
أن ندخن ، ولكن التأديب منعنا ، والناس لا يدخنون فى  
حضرة الامير أو كبار النجديين لان الدخان مكروه عندهم ،

وكان الليل قد انتصف فاستأذنا في الانصراف ، ولو أنا  
كنا انتظرنا حتى يصرفنا هو لبتنا الى الصباح ، فما مما  
يليق عندهم أن يصرف الرجل ضيفه ، ولم نكد ننطلق  
بالسيارة حتى أشعلنا السجاير .

ومن غريب عاداتهم أن الضيف لا ينام على فراش  
اتخذ واحد قبله ، فإذا ذهب ضيف فكت المراتب  
والوسائد والأغطية وأعيد تنجيدها لمن عسى أن ينزل من  
الضيوف ، وقد لفتنا الى هذا أننا رأينا كل ما على الاسرة  
جديدا لا شك في ذلك ، فسألنا فعلمنا مارويت ، وقيل  
لنا سترون المنجد غدا يدخل وأنتم خارجون . وأقسم  
مانمت على فراش أوثر من هذا ولا أمتع ، ولقد راهنت  
واحدا على أنه محشو بالريش فخسرت الرهان وتبين أنه  
قطن جيد مندوف لا أكثر .

ولما فتحت الحقيبة لأخرج ثياب النوم وجدت أنى  
نسيتها في جدة ، فقلت : لا بأس قليل من التقشف ينفع  
المترف ، وبحسبى بعض ما على من الثياب .

وأخذنى النوم وأنا أفكر فى الأمير وفى انتظاره ايانا  
فى قصر جلالة الملك ثلاث ساعات من غير أن يمل أو  
يتأفف ، بل من غير أن نشعر نحن بالحاجة الى الاعتذار له .

لا أدري ماذا أصابنى فى مكة ، فقد كنت أحس أن  
عفريتاً من الجن ركبنى ، وبلغ من شدة الحاح هذا الشعور  
أنى كنت أرانى أقف فى الطريق وأثبت قدمى فى الارض

مباعدة. بينهما وأرفع إحدى ذراعى الى ما وراء كتفى كمن يريد أن يسند شيئا ثم أرفع كتفى وأعطهما كأنى أريد أن أرد ما فوقهما الى الاتزان والاعتدال كما يفعل من يحمل طفلا أو غير ذلك ، فذكرت قصة السندباد البحرى الذى ركبته ما ركبتى ، فلم يزل مستقرا على كتفيه حتى سقاء السندباد البحرى خمرا أدارت رأسه وراحت أعصابه وفككت أوصاله فطرحه عنه . ولقد تمنيت لو أتيح لى أن أسقى عفريتى كأسا من الوردى أو حتى من الزيت لأتخلص من نقل هذا الكابوس ؛ ولكننا كنا فى مكة ولا سبيل فيها الى شراب غير ماء زمزم ، وهو ماء قد يغشى النفس ولكنه لا يسكر . .

على أنى لم أقطع الأمل ، وكيف أقطعه وهذا العفريت على كتفى قد لصق بهما وصار كأنه امتداد لهما ؟ وكيف أطرح حمله الثقيل عن عاتقى بغير الوردى أضحك به عليه وأزلزل كتفى تحته ؟ ففحصت الوجوه التى حولي وتفرست فيها مليسا ثم اخترت وجها كالمنتفخ فيه عينان باطن أجفانهما المحمر كأنه مقلوب ، وقلت له :

« يا صاحبنى أنى أشيم الخير من وجنتيك ، وأنس الرشد من عينيك . . »

فقاطعنى « عفوا سيدى . . »

قلت « لا داعى لهذا التواضع فان الامر بين ولا يشك فى ذلك الا أعمى ؛ فهل لك فى معاونتى ؟ »

ففرّك كفيه جذلا وتهدلت شفتاه الغليظتان وانشقتا  
عن أسنان طويلة سوداء ، وقال وهو يحنى رأسه قليلا :  
« مرني ياسيدي نحن هنا خدامكم »  
فوضعت كفي على كتفه وقلت :

« أستغفر الله • ان الامر بسيط على ما أظن لا يحتاج  
إلا إلى خادم واحد يعرف كيف يصرف العفاريت عن الناس »  
فحملني في وجهي كأنه لا يفهم فمضيت في كلامي  
وقلت :

« ان لنا في مصر طريقة مجربة نصرف بها العفاريت  
إذا ركبت الناس ، وقد أخذناها عن السندباد البحري ،  
أظنك تعرفه ؟ لا بد أنك سمعت به • انه ذلك التاجر  
البغدادى الشهير • آه لا تعرفه ؟ عجيب هذا ! إذا  
ما طريقتمكم أنتم ؟ »

فتلحثم وقال : « طريقتمنا ؟ طريقتمنا ؟ هل يريد السيد  
المازنى أن يقول انه يعتقد أن العفاريت تركب الناس ؟ »

قلت بضجر : « طبعا • طبعا ان العفاريت مذكورة  
في القرآن أفلا تؤمن بالقرآن ؟ على ان المسألة لا تحتل  
الخلاف فان الواقع من الأمر أن على كتفى الآن عفريتا وأنا  
أريد أن أصرفه فما أستطيع أن أظل أحتمله في غدوى  
ورواحى هكذا ! ثم انى أريد أن أدخل الكعبة غدا فكيف  
أدخلها بعفريت ؟ ألم تفهم ؟ ان العفريت يود أن يغتنم هذه



الفرصة - فرصة وجودنا وكوننا ضيوف الامير والسماح  
لنا، بدخول الكعبة بغير تفتيش : فيدخل معي ، أعني  
مستخفيا على كتفي . وهذا لا يجوز ، ولست أرى أن  
أساعده على ذلك . أفهمت الآن ؟ »

فضحك الخنزير - أعني الرجل الذي توسمت منه  
الخير ، وظنني أمزح ، وقال :  
« يا رجل . والله لقد حسبتك جادا ؟ »

فغساظني ذلك ولكنني كظمت غيظي وقلت بأبنسامة  
متكلفة :

« لقد أخطأت . اسمع . قد يكون عفرتي مؤمنا أو  
لا يكون لا أدري . لذلك أريد أن أصرفه . فهل لك أن  
تعينني ؟ أجب بلا أو نعم . وعسى أن لا تخيب أملِي فيك »

فعاد اللعين يضحك ، وأحسبه أحسب أن يجارييني  
فيما ظنه مزاحا مني فقال :

« وما هي طريقة السندكار البحري التي تتبعونها  
في مصر ؟ »

فتشجعت وقلت بلهجة الجدد المر .

« نسقيه كأسا أو اثنتين فيسكر فنلقيه ونستريح  
منه - طريقة عملية - بل هي أضمن طريقة لان قوة  
الاسكار في الخمر حقيقة علمية ولهذا نهى الشرع عنها »

فأرسلها ضحكة مجلجلة تجاوبت باصدائها الحجرة  
فأسرعت فوضعت يدي على فمه وبودي لو أكتم أنفاسه  
فقال بعد أن تخلص مني :

« والله يا أهل مصر انكم لظرفاء »

فقلت « العفو » هذا بعض ما عندكم . على أن في  
الوقت متسعا لتقارض الشناء فهات لعفريتى كاسا ،  
فابتسم وقاتل :

« كيف تسقيه وأنت لا تراه ؟ »

فقلت « اننى أعرف الطريق الى فمه فان بيننا الآن  
اتصالا لا تدركه أنت . فهاتها أولا والباقي على » .

ولكنه لم يفعل ، لأنه ظن لبلايته انى أستدرجه الى  
الاعتراف بأن فى مكة خمرا ؛ وقد رأيته بعد ذلك فعجبت  
أين غابت سمات الخير وكيف استسرت مخايل الرشده  
التي كنت اجتليها فى وجهه ؟

وقد سلط زكى باشا نفسه علينا بعد ذلك فى الفجر  
أو قبيله بدقائق وكنا نياما ، كما لا احتساج ان أقول ،  
وكان عفريتى قد انصرف عنى فى الهزيع الاخير من الليل-  
انصرف على يأس كبير ، وكان فى حجرتنا ستة أسرة على  
صفيين ، والباقون منا فى حجرات أخرى ، وكان سريرى  
بجانب النافذة بحيث يسعنى بأيسر مجهود أن أطل من  
الشباك على الحرم ، واتفق انى كنت أحلم بالعفاريت

وأراني كأنى أسقيها خمراً وأعابئها وهى تترويح فأدغدغ  
لها خصورها قارة ، وأشعل السجائر من عيونها طورا ،  
وأجرها من ذيولها وأديرها حولي ، وهكنا وإذا بصوت  
ممدود مزعج يوقظنى من سباتى ويبسدد أحلامى اللذيذة  
ويطير خيالاتى الممتعة ، ففتحت عيني متضجرا ، فإذا شبح  
ضخم يسدو من وراء الكلة فقلت لنفسى « يا للفضيحة !  
أيسطى علينا فى دار الضيافة ؟ » وابتسمت مطمئنا فقد  
تركنا ما معنا من النقود فى جدة ، وتناومت لأرى آخر هذه  
الحكاية ، فانبعت من الشبح صوت غليظ مديد فرفعت  
رأسى مقدار قيراط فإذا به زكى باشا يبدو فى عباءته شيئا  
عظيما جدا ، ولم يعجبني أن يوقظنى فى فحمة الليل  
فحولت وجهى عنه فمد يده وصاح :

« قم ا »

فاشرت اليه ان لا ، فعاد يصيح

« أقول لك قم »

فصاحت بأعلى صوت أستطيعه :

« وأنا أقول لك لا فاذهب عني »

فقل : « قم لنصلى الفجر فى الحرم • منظر لذيذ

لا يصح أن يفوتك »

فقلت « اذا كان المنظر هو كل ما نبغى ، فاذهبوا

انتم فان منظركم من النافذة سيكون امتع لى ، ويمكنكم

أن تضعوا علامة على ظهوركم لأعرفكم بها »

رحلة الى الحجاز - ٩٧

وأحسبه لم يسمح أو لم يحفل ما أقول فعند مد يده  
من تحت الكلة وراح يسلم الأجايف ويعري بي وهو يقول  
« اقم • اقم • قم • قم »

فصاحت به وأنا أجذب اللخاف لأغطي  
« لا • لا • لا • لا »

فمضى عني إلى الباقين واحداً واحداً ونسى الله أيقظهم  
جميعاً حين أيقظني

وتوضأنا ودخلنا الحرم ، وفتح لنا الكعبة وبابها  
عال والصعود إليه يسلم ختسبى متسحرك ، يوضع عند  
الحاجة ويرفع بعد ذلك ، وهو من النوع الذى كان يتخذ  
فى المساجد المصرية ليرقاه الخادم ليبلغ الاسرجة فيضيئها  
أو ينظفها ، وذلك قبل اتخاذ الكهرباء وتناول يدى سادن  
الكعبة وأنا على آخر درجة فكدت « أفع وألسوى ذلك أنى  
كنت أصعد على يدى ورجلى كما تفعل « القردة » ولما استويت  
واقفا طوقنى بذراعيه وغمر وجهى بلحيته البيضاء الطويلة  
وكنت أنا أيضاً قد أرخيت لحيتى ، وكانت بيضاء كذلك ،  
ولكنها قصيرة فأسفت لأنى لم أرسلها قبل رحلة الحجاز  
بمضعة شهور ، اذا لاستطعت أن أقابل سادن الكعبة  
مقابلة الند للند / وإن أشكه بلحيتى كما أشكنى بلحيته ،  
على أن لحيتى على قصرها أفادتنى فى الحجاز وبدأتنى بمقالما

ملحوظا ومركزا ميسارا ، واكسبيني وقرا ليس لي ؛  
وجعلت لي سماء وأبهاء لا عهد لي بهما ، وكان الناس  
يحدثون بي ويهرعون الي ويكبرونني من أجلها ، ويصحبون  
علي بدي ماحديها وأقول ، « استغفر الله ، تؤ ، تؤ ، تؤ  
بارك الله فيكم » ويعبرون بي ويمنعونني أن أمشي الى حيث  
السيارة لان من كان في مثل سبي ، وكانت له مثل طييتي  
البيضاء لا امان أن يجدهم مشعة ، أو يكلف تعباً ، فلو أن  
الغيد في الحجاز سافرات لبديت ولعلت متوجعا ، اما قال  
ابن الرومي :

أصبحت شيخا له سسم وأبهاء  
يسعدوني الغيد عماء ، نذرة ، رابا .

ولكنهن هناك منجيات ، فلا أسف ولا بكاء ، واني  
لجيتي بعماء الله وشيئا كره علي أن يبيض وجهي ، ولم يسوده  
كودوه زهلائي ، ... اعني الذين كانت لحاهم مسبوداء ، وقبل  
أسف وانا مسساك علي عمري الذي أضعته في الاستغال  
بالادب ، وأضفته في هذا البيت الذي لا يجدي ، فان  
الحية واحدة بفضاء ترجع هناك بمائة كتاب من خبر ما أنجحت  
العقول ، ولو كنت أعرف هذا من قبل لجعلت وكدي لا  
الكتابة والتأليف كلا ، فان هذا كله عيب بل معالجة لحيني  
لتشبيب .

ومشي بي السادن خطوات ثم وقف بي ورفع يديه  
وزاح يدعو وأنا وراءه ، وغيني الى لحيته النسيطة التي

كانت تتحرك مع الكلام ، وأقسم لقد نفستها عليه حتى  
لقد خطر لي أن انزعها عن وجهه وألبسها بدلا منه .

وقال بعد أن فرغ :

« صلي هنا ركعتين »

قلت : « أين القبلة ؟ »

قال : « لا قبلة هنا . كل مكان قبلة »

قلت « فهل أصلي دائرا حول نفسي كالكرة الارضية؟

ان هذا صعب فأرني كيف أصنع »

فلم يفهم وفأل :

« نصلي ركعتين في كل اتجاه »

فاتجه لي رأيان أردت أن أستفتي فيهما .

ولكني لم أجده من يفتي ، أو على الاصح لم أوسم

في وجوه من حولي قدرة على الافتاء ، فاطعت وصليت .

والكعبة من الداخل حجرة واسعة خالية يحمل

سقفها عمد غليظة من خشب زكي الرائحة ، وهي مكسوة .

ولكن الجزء الاسفل من جدرانها معري ، وعليه ألواح من

الرخام حفرت فيها كتابات بخطوط شتى ترجع الى عصور

مختلفة تذكر أسسما من أصلحوها أو رموها أو زادوا

عليها شيئا أو فعلوا غير ذلك ، وبعض الكتابات كالطلاسم

لا يقرأ . وقد تعقبنى رجل يشرح ما على الجدران ؛ وكان

من الجلي أن شرحه خطأ وأن الاختراع فيه أكثر من العلم،  
فسألته وأشرت إلى لوح رديء الخط « ما هذا ؟ »

فقال : « هذا يا سيدي .. هذا .. أظنه  
خط .. ؟ ! »

فقلت : استعجله « خط من ؟ »

فدنا من اللوح وتأمله من قريب ثم رفع رأسه وقال :  
« نعم . المنتصر بذلك المستنصر .. أياه ؟ نعم هو  
بعينه لقد عرفته . »

فقلت : « آه عرفت خطه ؟ »

قال : « نعم »

قلت : « انه رديء »

قال «نعم غير واضح»

قلت «هل كان صديقك ؟»

قال «صديقي ؟»

قلت «لعله كان قريبك ؟»

فحملق في وجهي ثم قال «انه قديم جدا» .

فسألته : «الخط أم الرجل» .

فقال «كلاهما»

فقلت «شيء جميل ! وأين هو الآن ؟»

فقال بلهجة المستعرب أو الذي بدأ ينسك في عقل  
محدثه :

« أين هو الآن ؟ لقد مات منذ مئات من السنين » .

فسألته : « وهل كتب هذا بعد أن مات لا »

فجذبني أجسد الزملاء فلم التفت اليه وقلب  
لديلي :

« أريد أن أبكي » .

وأخرجت المنديل ورفعته إلى عيني فأقبل على  
الرجل يسألني بلهفة .

« ما السبب ياسيدي ؟ لماذا البكاء لا »

فأجهشت وقلت بصوت متهدح من فرط التأثر .

« أسفا على المستنصر ! »

فجمل يطيب خاطري ويؤكد لي أنه في وديعة الله  
وجنته . فقلت والدموع تنهمر من عيني .

« ولكنك مسكين ، فقد عمره كله » .

فأخذ بشكر لي عواطف الرقيقة وشعوري الطيب  
فتسابلت عبراتي على خدي وأنا أقول .

« لو كان قد أدركك لما خسر عمره كله هكذا .  
مسكين ! »



وانتهج . فشدني رميلي وقال .  
«نعال يا شيخ !»

ولما عدت الى مصر . اقبلت امي على تسالني  
فقصصت عليها ما رايت ، ووصلت في وصفى الى الكعبة  
فقالت :

«هل دخلتها ؟»

فقلت : «بلى ، دخلناها بصفة خاصة» .

فقال : «طوبى لك لا تخبر احدا بما رايت فيها .  
احذر» .

فسألته عن النسب فقالت :

«أن من يرى الكعبة من الداخل لا يقص على غيره  
ما يرى» .

قلت : «ولكنها خالية ولا شيء فيها . كانت أشبه  
بمخزن الأوتان في الجاهلية فأخلاها منها النبي عليه  
الصلاة والسلام» .

فقالت : «أبوه . خليك على كده . كل من سألك  
عنها تقول له لم أر شيئا» .

فقلت : «ولكنها حقيقة خالية»

قالت : «تمام مضبوط . بارك الله فيك»

فقلت : « انى لا أكذب ولا أدعى : هى حقيقة كما أقول خالية »

فقلت « أيوه • تمام • أهو كله • الله يزيدك عقلا » •

فأمسكت ، ولم أرلى حيلة ، وهانذا أقول للقراء ان الكعبة لا شئ فيها فليصدقوا ، وليكونوا كأمى ، وليستوا لى أو فليضنوا على بالدعاء — كما يشاعون •

\*\*\*

وقد كانت مصر ترسل الى الكعبة فى كل عام كسوة جميلة دقيقة الصنع ، فكفت عن ذلك فخسرت مركزها الدينى الممتاز وثناء العالم الاسلامى عليها وحمده لها واعجاب بصناعتها ، وتبطل من جراء ذلك صناع الكسوة المصريون الذين ورثوا هذا الفن عن آبائهم وانقطعوا له ، وأنتها — الحكومة السعودية دارا لصنع الكسوة جلبت لها الاساندة من الهند ليتولوا ذلك وليعلموا أبناء الحجاز • وقد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما تخرج من الخوانر الموشاة والمطرزة بالقصب والفضة ، ومن السجاجيد وما اليها ، وهكذا أفاد الحجاز صناعة جديدة وخسرت مصر صناعتها القديمة البديعة ، وأصيب عمالها بالفاقة •

\*\*\*

ومن الممكن أن أقول — ومن الممكن أن يصدق القارىء —

ان لحيتى طالت فى خمس دقائق أفصاف ما تطول عادة فى  
خمس أيام ، وانى لولا سوء الخط لخرجت من الحرم صباح  
ذلك اليوم بلحية جليلة طولها على الأقل شبر . وسأروى  
للقارىء ما حدث وأنا على يقين من أن مروءته سمندفعه الى  
مشاطرتى ذلك الغم الذى انتابنى لما أفلتت من يدى تلك  
الفرصة الفضية .

وشرح ذلك أننا خرجنا من الكعبة أو نزلنا على الأصح  
م قعدنا بين الصفوف عند باب الصفا ننتظر مقدم الأمير  
لزيارة الكعبة وسسماع الدعاء — على بابها — لليلة والده .  
بطول العمر ودوام النصر والتأييد وبأتسياء أخسى كثيرة  
نسيتها الآن وأذهلنى عنها ما وقع لى ، وكان الجيش صفين  
فى الطريق من دار الحكومة الى الحرم ، وتلاميذ المدارس  
صفوفا فى فنائه ، وقيل جاء الأمير فنهضوا بنا الى الباب ،  
وأقبل سموه وبين يديه وأمامه وعلى يمينه ويساره حاشيته  
وعبيده فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم المباخر ، فدفعونا  
اليه وفرقوا بنا الخلق الى صفه فسرنا فى موكبه ومنا من  
استطاع أن يكون الى جانبه ، وآخرون ردهم الزحام وراءه  
حتى بلغنا الكعبة ووقفنا أمام بابها ، فأجلت عينى فى هذا  
الحشد الهائل وأنا أتصبر على ما أحسه من الضغط الذى  
كاد يقصف لى ضلوعى ، فرأيت النصفاء تلعب ، فخفت أن  
يرى أحد شفتى ساكنتين لا تضطربان بشئ ، فقلت  
أحركما بالفاتحة لعل الله ينقذنى ببركتها من الأزم الذى  
أنا فيه . وأشهد انها كانت أشد الفواتح التى قرأتها فى

حياتي بركة ، ذلك اني ما كنت اتلو منها آية حتى ارتفع صوت بدعاء ، ثم رأيت سائبا - أو أنا أظنه ذلك - يرمى الى الداعي بعباءة رقيقة النسيج جميلة ، فقلت لنفسي وأنا أحسد الداعي ، والله اني لأحسن أن أدعو بخير من هذا وبأجسدي منه على الأمير ، ثم اني أرى دعائي مستجابا أيضا .

ولم أستطع أن أسترسل في هذه الحواظر ، فقد قطعها على أن سادن الكعبة - وكان واقفا في حاضيته ، أو لعلهم أبناؤه وأحفاده في باب الكعبة ، فوقنا - نهدم خطوة وبسط كفيه وانطلق هو أيضا يدعو ، فقلت لنفسي سيجيء دوري اذا ، فصبرا يا مازني ، وعسى أن يكون مع الشاب الكفاية من العباءات ، يقارب الشيخ السادن خدام الدعاء فزل لسانه - والمرء ، كما تعلم بأصغريه . قلبه ولسانه لا بلخيته وقوامه في فدعي بطول النصر والتأييد . . ولكن . . للحكومة العثمانية !!

فصححت : « ياخير أسود »

ولم أملك نفسي فقرصت ذراع جاري وأنا أظنسه زميلا لي ، وأدرت اليه وجهي متوقعا أن أقرأ ألفي الوجهه تأييد صيحتي فراعني :

أولا - أنه لم يكن زميلا لي ولا رجلا أعرفهم أو أحب أن عرفه .

ثانيا - انه كان ينظر الى شزرا ووجهه من التفطيم  
كالأسفندجة .

ثالثا - انه كان يعبرى ذراعه ويفحصه جيدا ،  
استعدادا للملاكمتى كما توهمت ، فخطوت الى الامام  
ونسلمت بين الأرجل حتى حاذيت الأمير ، ولا أكنم القارىء  
انى خفت ، فقد ايقنت ان قرصتى كانت أوجع لهذا الجار  
من الدعاء للحكومة العثمانية ، وأنا - كما لا يعلم القارىء -  
وما يمكن أن يعلم بالتجربة - ما هو فى القرص ، ومزيتى  
انى أتناول « خيطا » من الجلد بين لحم أصبعى وأفركه بهما  
لا بأظافرى ، كما يفعل الاغرار والبلهاء ، فيكون لذلك  
كى ، وشى ، ولذع كلذع النار ، فهذه فائدة خرج بها  
القراء من حيث لا يحتسبون .

وايقنت وأنا واقف ان سادن العكبة سبطير رأسه  
عن بدنه بضربة سبب ، وما على الأمير الا أن يغمز بعينه  
واحدا من عبيده أو يرمى له بأصبع فاذا الرأس يتدحرج  
على السلم ويهوى عند أقدامنا ، ولم تخالجنى ذرة من الشك  
فى أن هذا آخر عمر الرجل ، ونسيت ان التحرم كل من  
فيه وما فيه آمن ، وقلت لنفسي : مادام ان الرجل مقتول  
لا محالة ، فمن الحسارة ولا شك ان نذهب لحيته مع روحه  
وهى ستخلق له على كل حال بعد موته ، فما تكون المرء  
فى الجنة الا امرء ، ورفعت عيني الى وجه الأمير وقد وطئت  
نفسى أن أقدم اليه ، بعد أن ألمح إشارة الإعدام راجعا

أن يأذن في نزع لحيته واتخاذها لنفسى . وحولت عيني  
الى الشيخ سادن الكعبة فالأى واحد وراءه يجذبه من كتفه .  
فقلت : « آه ! لقد حم أجلك يامسكين ! سيتهودونك  
الى الخارج ليقطعوا لك رأسك »

ولكن السادن خيب أملى : ذلك أنه التفت الى من  
يجذبه ثم اليها وقال مصححا :

« بطول النصر والتأييد للحكومة السعودية »

ضاعت الفرصة . خسرت اللحية . وسأخرج اذا  
كما دخلت وليس على وجهى سوى هذه الشعرات القصيرة،  
واسفاه ! وسيظل هذا الرجل بشبر من الشعر الشمائك  
على مدار وجهه على حين أمشى أنا بين الناس محروما كاسف  
البال ! وما لحية يضمن على بها الأمير ؟؟ ان صاحبها لا يزيد  
بها كبيرا ، ولا ينقص بغيرها عمره ، وقد لبسها دهره  
طويلا فحسبه طول ماتمتع بها ولن يضيره الآن وهو واقف  
على ساحل الحياة ، أن تخلع على ، أنا الذى ليس أحوج  
منى الى مثلها

وهبط قلبى ، وتدل على صدرى ، واسودت الدنيا  
فى عيني ، وتهضم وجهى ، ونقص وزى ، وتخسذلت  
رجلاى ، فلو أفسح الناس لى مكانا كافيسا لتهاقت الى  
الأرض وتهاويت كوما مفككا من العظام اليابسة والأعصاب  
المرهقة ، وأدبر لحم خدى ، وظل يدبر ويدبر حتى بلغ

أصول الشعر ومناقبه فبرز معظم الشعر الى الجهور .  
ورفعت يدي الى وجهي فاذا بي أحس لحيتي قد  
طالت ... من الهزال !  
وانطلقت المدافع من قلعة بجناد قطار الحمام عن  
أكتافنا



وكر الأمير راجعاً فكررنا معه نندافع ونتراحم  
ويستوقفنا رياض أفندي أمام الفونغرافية فتتلمس رؤوسنا  
فرجة تظهر منها . أمام العدسة ، وأشب أنا القصير المسكين  
ثم انحط يائسا ، حتى بلغنا الباب ، وكنا قد دخلنا من  
غيره ؛ فسبقنا الأمير الى دار الحكومة ، ووقفنا نحن ننتظر  
أن يجيئونا بأحذيتنا ، فلما صارت فيها أقدامنا بين صفوف  
الجند الى دار الحكومة ؛ وراقني منظر الجنود في نياح  
« الحاكى » وقلت بأقون لتحييتنا ولا شك فقد مر الأمير  
فجعلت أتلفت يميننا ويسارا وأرفع يدي بالسلام فسألني  
واحد

« على من تسلم ؟ »

قلت : « أريد تحية الجند يا أخى »

فصاح بي « أى جند يا أخى ؟ ألا تخشى أن يعدوا  
هذا تهكما منك ؟ أتريد أن توقعنا في ورطة ؟ »

فمنحته أعذب ابتساماتي وأرقها وأحفلها بالعطف  
والمرثية ، وواصلت تحياتي وتسليماتي غير عابئة بهذه  
الغيرة ٤

وتوقعتم أن تنقض الدار ، فقد كانت خاصة لا موضح  
فيها لقد تم فلو زمنت كرة صغيرة لظلت تنتقل من رأس إلى  
رأس دون أن تصل إلى الأرض ، بل لكان الأرجح أن تصعد  
مع الناس إلى الطبقة العليا وأن تدخل على الأمير معهم .

وبعد لأي ما بلغنا غرفة الاستقبال ، وكان الأمير  
واقفاً في الصدر وحوله الكبراء والجناء والناس يتقدمون  
إليه ، ويضربون به ، فإذا كان من بينهم عظيم أو وجيه  
وضوح - أي الوجيه - يده على كتفي الأمير وجذبه وقبل  
أنفه لأن الأنف أبرز شيء في الوجيه ، وقد وقف الأمير كما  
رأيت : مقدماً أنفه لمن شاء ومثلياً عليها قبيل المهنئين  
ولمات الداعين ، فلما جاء دورنا وددت لو أنه كان أمامه  
كرسي ! إذا لفزت أنا أيضاً بتقبيل أنفه ولجريت ذلك وعبرفت  
سبيله وتقصيت سره ؛ ولكني كما تعرف ، فاكتفيت بأن  
تقدمت إليه في لؤدة ووقار ، ويسراى تمسح لحيتي تنبئها  
إليها ولقنا لتسببها ؛ ويمناى تمتد إلى يده وتقبض عليها .

والحق أقول إن سلام النجديين لا يعجبني لأنه بارد  
لا حرارة فيه ولا روح ، والواحد منهم في أمير أكان أو غير  
أمير ، يمد إليك كفاً مفتوحة كأنها قطعة من الجبن الطري  
لا عظم فيها ولا أعصاب لها ، فإذا تناولتها وقضت عليها



لم يبادلك ذلك بل ترك كفه لك تصنع بها ما تشاء ، ثم  
يسحبها في فتور وضعف ، فتخجل وتبرد الحرارة التي  
تناولت بها يده ، ويجلد الدم في عروقك .

وانصرفنا عن الأمير بعد السلام عليه ، الى غرفة  
أخرى ذهبوا بنا اليها وهناك سقونا عصير الليمون . ثم  
مالبننا أن دعينا الى الأمير فدخلنا وجلسنا وهنأنا مرة  
أخرى وأديرت علينا القهوة النجديه ، وأمرها عجيب ،  
ذلك انها خليط من البن والمرى ، الحبهان ولا أدري ماذا  
أيضا ، وطعم البن يختفي بين هذه الاخلاط الحريفة ،  
ويجيئونك بها في أبريق كبير من النحاس ، يحمله الخادم  
في يسه ، وفي سناه الفناجين الكبيرة بعضها في بعض  
فيصيب من الأبريق مقدار رشفة في الفنجانة ويقدمها لك  
فنقلب الفنجانة على فمك ونهزها لينحدر ما فيها بسرعة ،  
فاذا راققت القهوة مدت يدك بالفنجانة في صمت فيصيب  
لك رشفة أخرى وهكذا والا هزئت الفنجانة فينصرف  
عندك .

وقد كنت وأنا في مجلس الأمير متعبا وكان رأسي  
أحسبه ثقيلًا ، وخفت أن أنام أنا أو إلهوم ، فقلت أنه نفسي  
بالقهوة ؛ فرجوت من الخادم أن يملأ لي الفنجانة فان هذه  
الرشفات الضئيلة لا تصنع شيئًا ولكنه أثر عادته فذهب  
يصب لي رشفة بعد أخرى وأنا أناديه بعد كل واحدة وأرده  
الى ، ولا أناوله الفنجانة مخافة أن يذهب عني فلا يعود ،

فلما تكرر ذلك أربع مرات خطف الخادم الفنجانة وصاح  
وهو يمضى عنى ضاحكا « يا رجل ! » .

فقلت وراءه وأنا أقول : « ما هذا الكلام الفارغ ؟  
أريد قهوة حقيقية لا لونا فى الفنجانة ! تعال هنا ! » .

فأسرع الى واحد من الحاشية يسألنى ما الخبر .

قلت : « الخبر أنى أريد أن أشرب قهوة حقيقية ،  
وهذا الرجل يضحك على ويقدم لى دهانا فى قعر الفنجانة  
لا يسيل ولا يصل الى حلقى منه شيء . هذا هو الخبر - ثم  
هذا لسانى ( وأخرجته ) بذمتك هل ترى عليه أثرا  
للقهوة ! » .

فقال الرجل : « لا عليك . تعال يا هذا . أتزع له  
الفنجانة » .

وقد كان .

وكفوا بعد ذلك عن مخادعتى بلون القهوة وصاروا  
يجيئوننى بها فى كل مكان قهوة حقيقية لا سبك فيها ولا فى  
مقدارها ولا فى طعمها ولا فى أنرها . ولكنها سرقت النوم  
من جفونى ففهمت لماذا يكتفون منها برشفة .

وعدنا الى دار الضيافة لنستريح فاتفق ان لقيت فى  
الطريق واحدا لم أشك فى انه نجدى وكان فوق نجسديته  
قصيرا ، فأقبلت عليه وقلت هذه فرصة ، وقلت :

« كيف حالك ؟ ان شاء الله خير » .

وأهويت على كتفه فجذبتها على نحو ما رأيتهم يفعلون  
ومططت شفتي استعدادا لتقبيل أنفه ، ولكني لم أحسن  
قياس الابعاد وعمل الحساب اللازم ، وجاءت الجذبة أسرع  
وأشد مما ينبغي فوقع فمي على فمه واصطدم الأنفان .

فلما أفاق من دهشته ، قلت له على سبيل الاعتذار ،  
وأنا أتلمظ وامصمص بشفتي :

« لامؤاخذة ! لقد أردت أن أقبل أنفك ، ولكن التدريب  
ينقصني . على كل حال الخير في الواقع . السلام  
عليكم » .

وذهبت أعذر ولحقت بأخواني وهم يهمون بالعودة  
الى وقد توهموا لبلاهم اننا استبكننا في مصارعة .



## بين مكة والكندرة

اشتبهت وأنا جالس في « دار الضيافة » ، أن أدخن « نرجيلة » أو « شيشة » كما يسمونها في مصر ، ولست من هواتها ، ولكنني افتقدت منظرها في مكة . وكنا في جدة . كلما دخلنا في بيت يجيئوننا بعدد من هذه النراجيل على أشكال شتى وحجوم مختلفة وألوان عدة ، فمنها ما هو من الفضة أو المعدن المنقوش أو المطلي بالذهب ، ومنها القصير والطويل ، والذي فيه صنعة والساذج الغفل ، والذي خرطومه من المخمل الأرجواني أو الأخضر ، إلى آخر ذلك مما لا موجب للتفصي فيه . وأهل جدة يستعملون للنرجيلة طباقا معالجا بالعنبر ومائة مادة أخرى لم أسمع بأسمائها من قبل ؛ تجعل له أرجا قويا وتترك المرء - على ما سمعت - يحلم .

ولم أفهم لماذا تكسر النراجيل في جدة ، ولا أنزلها في مكة . وخطر لي - على سبيل التعليل - أننا هنا ضيوف

الحكومة والحكومة لا تدخن ولا تسمح بالتدخين ، على الأقل  
فى حضرتها ، وفى دورها . غير انى لم أسترح الى هذا  
التعلييل وقلت ان الأعيان الذين يحفون بنا كان يسعهم  
أن يقترحوا علينا أن يجيئونا بواحدة ، هانا مصريون ،  
وما لا يجوز للمكى جائز للمصرى ، ثم انهم يدخنون  
السجاير فلم لا يتخذون النراجيل ، وكله تدخين ، وعلى  
ذكر السجاير أقول ان العموم فى الحجاز لا يعرفون منها  
سوى صنف واحد رخيص ردىء هو بعض ما يصنعه  
ويصدره اليهم « ماتوسيان » . وقد يكون فى رخصته  
شك ، ولكنه ردىء على التحقيق ، يستخذم السابق كما  
يتخذ الوجيه السرى ، فالديمقراطية كما رى بخير  
هناك ، وأبرز عناصرها وأقوى مظاهرها هو « ماتوسيان » .

وأعود الى ما استطردت عنه ؛ أعنى الى الدرجيلة ،  
فأقول استقت أن اضطجع على واحدة من هذه الحششايا  
الونيرة وأنكى بكوعى على حسيانة صغيرة وأن أضع رجلا  
على رجل وأدنى خرطوم النرجيلة من سفنى وأرسل الدخان  
الكنيف الى رئتى ومعدتى بل الى اخمص قدمى ، ثم أردم  
من فمى وأنفى وعينى وأذنى وأنفجر بالسعال القوى كأن  
بركانا انطلق من جوفى؛ وأظل بعد ذلك بضع دقائق والدخان  
يخرج من مسام بدنى كلها كأنى بيت من الخشب اندلعت  
فى جوفه نار الحريق ، كما رأيت أهل جدة يصنعون .

ولكننى ضبطت نفسى ورضتها على الحرمان من هذه

المتعة البريئة ، كما رضت شيطاني على الكف على ابتغاء  
الويسكى ، وآلمنى ذلك - كما يسهل أن يدرك القارىء  
بغير عناء - فأيتنى أناجى نفسى وأعزى بها بأن أهل جدة  
مدللون على خلاف أهل مكة - هناك ، أى فى جدة ، يجتلى  
المرء مظاهر الترف والنعمة ، ويحس أن للقوم دلالة على  
الحكومة - أو دالة اذا شئت - وإن الحكومة توليهم من  
الرعاية والمجاملة والتسامح ما ليس له منسبه فى مكة ،  
وتطلق لهم فى أمور نصيبها منها فى مكة التشدد . ولقد  
قضينا فى جدة أياما لم نتسر فى خلالها بأن للحكومة  
وطأة تحس ، ولكن أنر الحكومة ووجودها ملموسان فى  
مكة فى كل مكان .

وقد أكون أولا أكون مبالغا فى هذا الذى عزيت به  
نفسى عن حرمانى لذة الشرجيلة ، ولكنى أعتقد أنى غير  
مخطئ جدا فيما شعرت به من الفرق بين الحالتين فى جدة  
ومكة من حيث سلطان الحكومة ، فإن قائمقام جدة أى  
حاكمها ، تاجر ؟ هو يجمع بين التجارة وبين أعمال  
وظيفته . وخليق بالمصرى أن يعجب لهذا وأن يرى فيه  
شدوذا عن المؤلف فى بلاده حيث لا يؤذن للموظف أن  
يشغل بالتجارة ، ثم أن من الحقائق التاريخية أن الجيش  
السعودى دخل مكة بعد فتح الطائف من غير أن يتطلب  
أو يتلکأ ، ولكنه لم يفتح جدة بل أقام حولها وعلى مسافة  
بعيدة عنها يضرب عليها حصارا خفيفا لئلا يمنع أن  
ويتصل ما بينها وبين مكة . ولعله فعل ذلك حتى لا يقطع

المؤن عن مكة ، ولكن من المحقق أن الدافع الأول الى ما يثاره الحصار واجتفائه أن يحاول فتحها عنوة أن في جدة قنصليات أجنبية ، وقد خشي السعوديون أن تصاب دورها أو أحد رجالها بسوء فتتذرع إحدى الدول بذلك وتتخذ منه مسوغا لاحتلال جدة أو غير ذلك مما يجرى مجراه ، فبقي الجيش محيطا بجده شهورا حتى نفذ المال وانقطعت موارده عن الملك السابق على بن الحسين ، وتأخرت رواتب الجند وفشا عليه الأمر ، فسلمت المدينة وأبحر منها على بن الحسين على بارجة بريطانية محتفظا من كل ملك الذي نزل من .  
« بسيارته وسجانيده وخيله » ٩٩

وكانني بوجود الأجانب في جدة قد جعل لها مع الأسف مركزا خاصا وبسط عليها ضربا ملطفا من الحماية العامة وجعل الحكومة تتخذ حيالها مسلكا هو في جملة ألين من مسلكها في البلاد الأخرى . ويقىني أنه لو كانت الحكومة السعودية أقوى مما هي وأوفر عدة وأتم سلاحا وأقدر على الدفاع عن شسواطينها وثغورها لاختلص الحال وتغير الموقف ، ومن أجل ذلك يتوخى جلالة الملك ابن السعود السلم ويؤثرها على الحرب والنزاع ، وذلك ليتسنى له أن يصلح أموره ويرتب البيت ، كما يقول الاخرونج ، ويعالج مشاكله ويوطد حكومته ويقويها ويباشر مالا مفر منه من وجوه الاصلاح على قدر ما نسمح بذلك موارده .  
وقصدنا بعد أن استرحنا الى وكالة المالية ، ويتولاها نجدى ، فتح ، قال لي المستر فيليب أنه من أمهر الرجال



وأذكاهم وأحلقهم في سباحة المال ، وغرقه بسباحة ،  
وفيها مكتب أجلس أنا في مصر الى واحد أفخر منه وأجمل ،  
وهناك تفضل سمو الأمير فرد لنا الزيارة وأذن أن نصور  
معه ، ثم رغبت الحاشية أن تصور هي أيضا فكان لها  
ما أرادت . والنجديون يسمون الصورة الشمسية «العكس»  
ولا يرون في التصوير بأسا ولا يكرهونه كما كنا نسمع .

وفي وكالة المالية القيت خطاب مرحيب - لا أذكر  
الآن بمن على وجه التحفيق - وتهنئة للأمير «رجالة والده  
بلا أدنى ريب . وهناك أيضا جرى باتنين من الحجازيين .  
هما موظفان في حكومته وعملهما طبع «طوابع البريد» ،  
فقدمهما الوكيل الى سمو الأمير وأطلععه على نموذج من  
الطوابع التي عملت تذكارا لهذا اليوم - يوم المبايعة .

وزرنا بعد ذلك المستشفى وهو رحيب يسمع مائتي  
مريض ، وبه أقسام شتى للجراحة والأمراض الباطنية ،  
 وأمراض النساء وغيرها ، وفيه أطباء مصريون ، وبتر  
ارتوازية حديثة تمدد بما يحتاج اليه من الماء ، ثم قصدنا  
الى دار الكسوة التي اسلفت الكلام عليها ، ومن ثم الى  
التكية المصرية وهي تؤدي واجبا انسانيا جليلا .



وجاء وقت الغداء فتناولناه في دار الضيافة على  
الطراز الأوربي أيضا ؛ ولشد ما تمنيت لو نأكل مرة على  
الطريقة العربية أو البدوية ولكنهم في الحجاز ابوا ذلك

علينا وضمنوا بمتعته ، واحسبهم توهّموا ان اطعامنا على الطريقة العربية غير لائق ، أو ان ذلك ينطوى الى شيء من الاستخفاف بنا ، أو هو ينافى ما يقتضيه واجب الاكرام .

ثم ذهبنا الى السوق ، وهو على المسعى . وقد كرهت ان أرى الدكاكين فى بناء الحرم نفسه ، وملنا الى حارة ضيقة شبيهة بخان الخليل فى مصر . وفيها كل ما فى الخان ، والتجار فيها خليط من أهل مكة والهنود والفرس وغيرهم ؛ وأكثر ما فى السوق هندي أو فارسي ، ودخلنا دكان هندي طويل له مساعدان ؛ فزاغت أبصارنا وضلت عيوننا بين الطرف المعروضة وكان كل امرئ يتكلم ويطلب شيئاً ويسأل عن ثمنه ، والمساعدان يقدمان ما نطلب ويحيلان من يسأل عن الثمن الى الهنسى الطويل ، ولم يكن معي ولا مع زميل لي مال ، فقد خلفنا مامعنا فى جدة ، فاقترضنا من اخواننا ، ولم تكن الأثمان معتدلة ولا الحساب بالنقود الحجازية بالذى يسهل فهمه ، ذلك ان الجنيه المصرى يساوى عشرة ريالات حجازية ، والريال عشرة قروش ونصفه خمسة وهكذا ، ولكن الاطراد ينف هنا ، فاذا ذهبت تحسب الجنيه بالقروش وجدته يساوى شيئاً عجيباً : مئة قرش وبضعة قروش اخرى تكون تارة اثني عشر قرشاً وطوراً أربعة عشر ، وما أظن به الا أن قيمته بالقروش تضطرب تبعاً لحالة الجو ، فما فى مكة ولا فى جدة بورصة ، واذا كانت القيمة ثابتة لا تتغير وكنت أنا المخطيء فالذنب للتجار وليس لي ، فقد كنت أجهد

قيمة الجنيه عند تاجر غيرها عند سسواه ، واتفق أنى  
كنت أتوغل فى السوق فالفيت القيمة تهبط بعد كل  
خطوتين قرشا ، فخفت اذا أنا مضيت فى طريق داخلا فى  
السوق ألا أدنو من آخره الا وقد صار الجنيه قصاصة  
ورق كالمعاملات الدولية ، بل خفت اذا أنا بلغت نهاية  
السوق أن أجد أنى أصبحت مدينا !! لذلك ارتددت بسرعة  
ووليت خارجا - لا هاربا - الى أول السوق ، وفى يدي  
جنيه منشور - مما اقترضت - ألوح به للتجار وأصبح  
رافعا القيمة بعد كل بضع خطوات :

« ألادو ! الأتريه ! يابلاش ! بمائة وعشرين !  
ألادو ! بمائة وخمسة وعشرين » .

فلو طال السوق لرجوت أن أفيد الغنى أو أشتري  
مكة كلها بجنيهى ! ولكن التجار أشفقوا وخافوا مغبة هذا  
التقدم فوقفوا فى وجهى يردوننى الى داخل السوق  
ويشورون فى وجهى كما يفعل الناس ليصمدوا جوادا  
جامعا ! وتنبهت الحكومة الى الخطر المحدق بعاصمتها  
فاقبل على واحد من كبار رجالها يقول :

« لقد ركب الأمير فهلم لتلحق به »

ولكنى كنت مشغولا بفرصة الغنى التى أتاحها لى  
ارتفاع قيمة الجنيه فى أول السوق وانخفاضه عند آخرها ،  
فلم أعبا به ومضيت أصيح :

« قبيل أن نركب ! ألادو الأتريه ! أبيع بمائة  
وأربعين ! هل من مزايده ؟ بمائة وخمسين ؟ »

فجذبني الرجسيل وفي وجهه كل أمارات الفزع  
والارتياح وصاح بي :  
« يا أخى أجول لك ! الأمير ركب ! يجب أن نأجوهوا  
به لأن المسافة طويلة » .

فأدركت أنه يريد أن يصرفنى عن ربح حلال وفعمت  
عليه بذلك ، فنحيته عنى رانطلقت أعود إلى أول السوق  
ثم وقفت ألهمت وقدرت فى نفسى أن تكون القيمة قد بلغت  
عشرة آلاف فرش ، وهممت باستئناف المناداة وإذا بالقوم  
يحتملوننى ويضعوننى فى السيارة ! وانطلق بها السائق  
كأنه يفر من الموت ، ففعدت وأنا أقول لنفسى : « ان هذا  
ليس من الانصاف فى شىء ! وسأظل ما حييت أطالب  
الحكومة الحجازية بما أضاعت على وبالتعويض أيضا !  
ولن يضيع حق وراءه مطالب » . وغلبنى الشغاس فى  
الطريق إلى جدة واستغنيت بالأحلام عن حقيقة ما فاتنى -  
كدأبى أبدا .



والكندرة قصر على دقائق من جدة : وفيه نزل جلالة  
الملك عبد العزيز لما سلمت : واستقبل أعيانها وممنسلى  
الدول فيها قبل أن يدخل جدة فى اليوم التالى : وفى هذا  
القصر أقيمت حفلة الشاي التى أحضرها الأمير وسبقنا سموه  
اليها : ولا عجب : فان سموه يركب الرولزرويس ولا يتلكأ  
فى الأسواق ولا يريد الغنى من وراء اضطراب قيمة الجنيه  
بين التجار ، ونحن نفعل ذلك - ولنا العذر - وتركب

سيارة يابى سائقها « صابر » أن يسرع بها لئلا يفسدها لأنها جديدة ، ولأنه هو على ظرفه وفصاحته جنبل جدا .

ولا حاجة بى أن أقول شيئا عن الشاى فانه ككل شاى ، وقد شربناه واقفين - كل نحو عشرين الى مائة منقلة بأباريق النساى واللبن واللوان الفطائر واللماز والولائق والرصائع ؛ وكان ممثلو الدول يحفون بالأمير ، والنائم بأعمال المفوضية البريطانية ووزير الروسيا المفوض يتنافسان على الحظوة عنده ويتسابقان الى اكتساب وده ؛ أما نحن الذين لم يكن لنا من عمل أهم فى الحجاز سوى بطوننا ، فقد آثرنا مائدة أخرى ليسعنا أن ندخن كما نشاء ، وقد حمدنا لهذين الممثلين المتنافسين أنهما شغلا الأمير عنا بالحاحهما عليه ومطاردتهما له .

ثم خرجنا لشهد عرض الجيش ، فى الفضاء الذى أمام القصر ، ووقف سمو الأمير وأدنا من صفة لتتيسر الرؤية ، فمر المشاه النظاميون فى ثياب الخاكي ومعهم أسلحتهم المختلفة ؛ ثم تلاهم من سميتهم حينئذ الباشيزوق وأنا أعنى بهم البدو؛ فى ثيابهم الفضفاضة المختلفة الألوان؛ وكانوا على كونهم بدوا يمشون صفوفًا منتظمة ، وجاء بعدهم الفرسان ثم الهجانة صفوفًا متراصة لا تلتوى ولا تتعرج ولا تختلف كسوتها ولا يسبق جميل جمالا ، وعليها ، « الرجاجيل » كما يسمون « الرجال » مثقلين بأدوات الكفاح ، وأعقب هؤلاء المدفعية بأنواعها من مدافع رشاشة وأخرى جبلية أو للميدان أو غير ذلك مما لا أحسن بيانه

وتفصيله ، فما أعرفنى رأيت من أنواع السلاح الا ما يلعب  
به الاطفال فى الأعياد ؛ ولقد كنت فى الحجاز كلما رأيت  
رجلا مدججا بالسلاح أدنو منه وأمد يدي ؛ وقد هممت أن  
المس سلاحه واتحسس به كفى — فلو لا الخوف من أن يظنوا  
بى انى أريد السرقة أو الخطف ؛ لأمتعت نفسى بلمسه .

وابصرنا من بعيد محملا صغيرا مقبلا علينا فعجبت  
لهم كيف يعدون المحمل المصرى سنا ثم يستندون محملا  
منه ؛ وأشار الأمير بيده إشارة خفيفة لم يدرك أحد منا  
وقتلد معناها أو المراد بها ، وحسبناها أمرا بأن يكر  
الفرسان على نحو ما يفعلون فى الحرب ، فقد عادوا واحدا  
فى أثر واحد يخطفون الأرض بخيلهم ويتصاحبون وقد  
رفعوا الرماح أو صوبوا البنادق أو سنهروا السيوف ،  
وأشهد أن مناظرهم كانت مزعجة وأصواتهم مفرعة ، ولو  
رآهم القارىء وهم يعدون بجيادهم ويطلقون البنادق من  
وراء ظهورهم ويطعنون الهواء بحراهم وشعورهم منفوشة .  
لحسبهم بعض الجن .

وصفق الناس والتفت الأمير باسمما ودار ليرجع  
فسألت واحدا .

« والمحمل ؟ لماذا نره ؟ » .

فقال : « لقد غاب » .

قلت : « غاب كيف ؟ » .

قال : « لم يبق له أثر » .

قلت : « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « أمر سموه به فأبعد » .

وعلمنا بعد ذلك أن سموه كره لنا أن نرى هذا المحمل بعد أن انقطع المحمل المصرى ، وكان أحد التجار قد صنعه وكساه من تلقاء نفسه فلما لمح الأمير أوماً الى حاشيته أن يردوه فأخطأوا فهم مراده فحملوا عليه وحطموه ومزقوه . فكانه لم يكن !

الى هذا الحد كان سمو الأمير دقيقاً فى مجاملتنا ومراعاة احساسنا .



وقيل : اذكروا أنكم مدعوون الى مأدبة عشاء فى قصر الكندرة وأن هذه المأدبة رسمية تقيمها وزارة الخارجية أو ادارتها ؛ وأن سمو الأمير فيصل سيحضرها ؛ وان ممثلى الدول الأجنبية سيشهدونها كذلك . فسألت عن موعد هذا العشاء فقالوا الساعة الثالثة بالحساب العربى ؛ فتناولت ورقة وقلما وألقيت نظرة على ساعتى الافرنجية وشرعت أحسب ، ولا أكنتم القارىء انى أخيب خلق الله فى الحساب ، ولقد غلطت وزارة المعارف ( المصرية ) مرة - منذ نحو عشرين سنة - فكلفتنى أن أدرس هذا الحساب ، فاعترضت واحتججت ، فما أجدى عنى اعتراضى شيئاً ،

فقصدت الى « ناظر » المدرسة الخديوية التي نقلت اليها -  
وكان انجليزيا - وقلت له : « ان وزارة معارفنا تعتقد أن  
كل امرئ يصلح لكل شئ » ؛ ولكنى أعرف من نفسى أنى  
لا أصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب خاصة ؛ وأصارحك  
أنى لا أصدق أن واحدا فى واحد يساوى واحدا « هذا »  
كما يقول شاعر عربى « كلام له خبىء : معناه ليست لنا  
عقول » وقد تكون أو لا تكون لنا عقول ، هذه مسألة خلافية  
ندعها الآن ، ولكن المحقق عندى أن العلوم الرياضية وفى  
جملتها هذا الحساب لا تدخل فى دائرة عقلى ، فهل لك فى  
عونى على ما أريده ؟ » .

وضحك وقال : « وماذا نبغى ؟ » .

قلت « تعفينى من التدريس للفرق العالية ، وتفتح  
بأن تكل الى التلاميذ الفرقة الاولى ، أعنى الحاصلين على  
الشهادة الابتدائية فى هذا العام ليتسنى لى أن أحفظ  
الدرس أولا ؛ ثم ألقيه عليهم ؛ فنتعلم معا ؛ وفى خلال ذلك  
تبذل وساطتك لتردنى مدرس ترجمة كما كنت .

فسرنا صراحتى ووعدنى خيرا ، وشرعت فى العمل ،  
وكنت أحفظ الدرس جيدا وأراجع زملائى ثم أدخل على  
التلاميذ وألقنهم ما حفظت ، وقد وفقنى الله فى الهندسة  
والجبر ، أما الحساب فأعوذ بالله منه !! كنت أخطئ فى  
كل مسألة أطرحها على التلاميذ ، ولم أكن أكتهم أنى  
أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لى ، وأن الوزارة هى



المسئولة عن خلطى وتخبطى ؛ وانصف التلاميذ فأقول انهم قبلوا عذرى واغتفروا لى ضعفى وحفونى بعطفهم ولم يبخلوا على بايضاح ما يشكل على ويهدايتى الى الصواب حين أضل ؛ وكنا أحيانا - اذا استعصى عليهم افهامى طريقة الحل - نمضى بضع دقائق فى ندب سوء حظى وحظهم ، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت نفسه بالعطف على والمرتبة لى « كيف ترتكب الوزارة مثل هذا الخطأ التسيع فتعهد الى تدريس العلم الى جاهل به ؟

فيحمر وجهى أو يصفر - لا أدرى فما كانت أمامى مرآة - وأقول بلهجة الصابر على قضاء الله فيه .

«أنا عارف ؟ قل لها يا سيدى ! الأمر لله والسلام» .

ولم ينقذنى الا مفتتى انجليزى جاء على عادته ليشرف على سير الدراسة ، فعلمت أنه مع الناظر فى غرفته ، وكانت مجاورة للغرفة التى أنا فيها ، فأوصيت الخادم - أو الفرائس كما يسمونه - بأن يدعوهم الى ، حين يخرج ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فلما دخل على رحبت به واحتفت به بمقدمه وسرت به الى مفعدى ومكتبى ؛ وهناك سلمته كراسة التحضير وكراسة الأسماء ، وأصبح الطبيبشير وممسحة السيورة وقلت له :

« التلاميذ أمامك ، ومعك كراساتى وأدواتى فالسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وخرج ، فجرى ورائى وأدركنى أمام غرفة الناظر وقال :

« ان هذا جنون • فعد الى فرقتك » •

فقلت « جنون ؟ وهل كنت ننتظر أن أظل عاقلا ؟  
لقد صارحنكم مائة مرة بأنى حمار ؛ فماذا تريدون ؟ ان لي  
ذمة ، وذهمتى لا تميل أن أضيع على التلاميذ المساكين سنة  
من أعمارهم » •

قال « ولكنى أكدت لك أننا لا نجد مدرسا للرياضة  
فيجمل محلك • فانظر حنى نجد واحدا ثم نعيدك الى  
الترجمة » •

فقلت : « كلا ! تقولى أنت التدريس حنى تجسّدوا  
المدرس • وأنا مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفنيّتى » •  
فضحك ؛ وضحك الناظر وكان قد خرج على صوتنا  
ولا أطيل : اقنعانى بالعود الى فرقتى على ألا يطول عذابى  
الا أياما معدودات ؛ وقد كان •

وقد قصصت هذا التاريخ القديم ليعذرني القارىء  
إذا كان قد عزنى أن أعرف الوقت بالحساب الافرنجى ،  
ولقد ملأت والله الورقة كلها بالأرقام لأعرف كم تكون  
الساعة بالحساب الافرنجى فى الحجاز إذا كانت الثالثة  
بالحساب العربى فى الحجاز أيضا ، فالفيتها تكون كسل  
ساعة ما بين الاولى والرابعة والعشرين. الا التاسعة مساء  
كما زعموا ، وقد اتفق مرة أن أنشج حسابى الساعة التاسعة  
ولكنها كانت التاسعة صباحا ! فمزقت الورقة بائسا  
ورميت القلم من النافذة •

وملت الى واحد وهمست في أذنه .

« أرجو أن تصدقني ! كم ساعة باقية لنا قبل هذه  
المأدبة ؟ » .

فأخرج ساعة ونظر فيها وقال « ساعتان ونصف » .

وقبلته بين عينيه وقلت له « انك آية من آيات الله  
في الذكاء وحسنة الذهن . ولو كان الحسنة في طبعي  
لحسنتك . فإن من المدهش ولا شك أن تستطيع عمل كل  
هذا الحساب المضني في ربع ثمانية ! فتح الله عليك ! فتح  
الله عليك ! » .

وخرجت أعدو الى غرفتي ووقفت أمام المرأة وقلت  
لخيالي فيها .

« اسمع يامازني . ان هذه المؤدبة رسمية وسيحضرها  
وزراء الدول وقناصلها فينبغي أن تكون فيها فخرا لبلادك  
وعنوانا على ما بلغت من الحضارة والرقى ، لا عارا عليها  
وسبة لها ! فالبس ثياب السهرة وان كانت من طول  
ما طويت في الحقيبة قد تجعدت وتثنت وصارت كالوجه  
الذي غضنته الشيخوخة ؛ ولكن هذا حري بأن يغتفر في  
الحجاز ، وعندك في هذه الحقيبة كتاب في آداب السلوك  
في المجتمعات فأخرجه وادرسه بسرعة ؛ فإن في ساعتين  
الكفاية ، أفهمت ؟ اذن فالى العمل ! » .

وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير وفتحتها

بسرعة وأخرجت بذلة « الاسموكنج » والقميص الأبيض  
والرباط الأسود ، وسائر ما تتطلبه هذه البذلة ، ونصوت  
ما على بدنى من الثياب، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته وقعدت  
على السرير أدرسه وأنا نصف عار وأجريت عيني في  
الفهرس حتى استوقفنى هذا العنوان :

### « فن الانحاء »

فتحت الصفحة التي يشير اليها الفهرس وقرأت  
رأنا كالمسحور ، ما ترجمته .

« ان الانحاء ، ولن يكون وكيف يكون وفي أى وقت  
يكون ؛ فن قائم بذاته ؛ « واتقان ذلك وتجويده ، والحنق  
فيه والأستاذية ، أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب » .

فخفق قلبي طربا وشاع في السرور علوا وسفلا ،  
وبعد أن قضى بدنى وطره من الوثب والقفن - أو الرقص  
إذا آثرنا الرقة في التعبير - عكفت على الكتاب لالتهم منه  
هذا الفن الجليل فقرأت .

« وأول ما يجب على المرء ، أن يكون وضع القدمين  
كاول وضع لهما في الرقص » .

فكفأت الكتاب على ركبتى وذهبت أحضر الى ذهني  
واتمثل هذا الوضع الأول في الرقص ؛ فطافت برأسي صور  
شتى للأقدام كما كنت أراها في المراقص المصرية ، غير أنه

ما من صورة كانت تشبه الأخرى ، فألححت على خيالي  
وكددت خاطري وحصرت ذهني في هذا الموضوع وطردت  
عنه كل ما عداه حتى صار رأسي وليس فيه الا أحذية  
« ضاحكة اللألا » تروح وتجيء وتنسب تحت السيقان  
ال . . . . . »

وخفت أن أترقي في التصور من الأحذية الى ما فوقها  
فيتم فساد العمرة التي أفسدها المطوف وأشياء أخرى  
حدثتك عنها فيما أسلفت عليه القول .

تم قرأت .

« وترفع اليد اليسرى بخفة ورشاقة وتوضع أطراف  
بنانها على الصدر فوق القلب ؛ ثم يحني الرأس ويليه الجسم  
مما يلي الردفين وتكون اليد اليمنى في أثناء ذلك ترسم  
« في الهواء خطا مقوسا بلباقة وأناقة » ؛ ومما ينبغي توخيهِ  
والتدقيق فيه والحرص عليه أن « يكون تعبير الوجه فاتنا  
على قدر ما يستطيع صاحبه ، ونظرة العينين سابية ساحرة .  
« أما درجة الانحناء فمرهن بمقام الشخص الذي له التحية »  
الخ الخ . .

وطويت الكتاب وأطرقت ، فما كنت أظن الانحناء  
يمكن أن يكون عملا معقدا الى هذا الحد ! ومن لي باللباقة  
ومن أين أجيء بالرشاقة اذا وسعني أن أؤدي هذه الحركات؟  
ان كل ما أحسنه هو أن أهز رأسى متتابعا - من أعلى الى  
أسفل ، أو من اليمين الى اليسار - اذا أردت الاعراب عن

الموافقة أو المخالفة كسلا منى عن النطق بنعم أو لا ، وقد  
ألقى فى الطريق بعض من أعرف وتكون بينى وبينه مسافة  
تمنع الكلام فأحاول أن أومىء إليه برأسى وإذا به يتجههم  
ويحسدنى بالنظر التمزير ، فأعجب لسوء أدبه فى رد  
التحية ، وقد تبينت فيما بعد أنى لم أكن أهرز رأسى بل  
أحرك حاجبى فكان الناس يحملون هذا منى على محمل  
السخرية ولو علموا لعذروا .

وقلت أتدرب ؛ فوثبت الى قدمى واستويت واففا  
أمام المرأة وقلت وأنا ابتسم لخيالى فيها وانحنى :

« يا سيدى الأستاذ المازنى انى أحبيك وأؤكد لك  
انى خادمك المطيع وأدعو لك بطول العمر » تم اعتدلت  
بسرعة فقد شق على منظرى ؛ وكنت لا أزال نصف عار ،  
وعجلت بارتداء الاسموكنج حتى إذا فرغت من ذلك خرجت  
أتخطر وأنحنى بعد كل خطوتين أو ثلاث انحناء عميقا كأنى  
مائل بين يدى ملك الملوك على الأقل أو أفتن امرأة فى العالم  
وإذا بطربوشى تكبسه على رأسى بطن الخادم فتراجعت قليلا  
لأفسح لنفسى ورميت إليه انحناء عميقة وقلت وعلى فمى  
ابتسامة لم يخالجنى شك فى عذوبتها وسحرها .

« سيدى انى أعتذر وأحى فى شخصك فضائل  
الطاعة والاخلاص والأمانة ، »

فارتبك المسكين وجحظت عيناه وتصيب العرق البارد  
من جبينه وصار يتلفت يمنا ويسرة كالذى يبحث عن نافذة

يشب منها حتى اذا وقعت عينه على الباب ؛ ولى هارباً ؛  
فتلبثت . . . هنيهة أصليح من شأنى وأرد طربوشى مما  
جار عليه من وجهى ولما لم أجد أمامى أو معى أحداً من  
خلق الله استقبلت الباب وألقيت . اليه انحناءة بارعة واذا  
بأصوات من خلفى تصيح بى :

« ايه ده بس فى عرض النبى ؟ طلعت البلا على جنة  
الخدّام » .

فدريت على عقبى وجدت عليهم بانحناءة متقنة وقلت  
وأنا أرسم بيمنى قوساً مزدوجاً :

« سادتى . انى عبدكم الخاضع المطيع وخادمكم الوفى  
الأمين » .

فقال أحدهم وهو يشور بكلتا يديه كأنما يطرد عن  
وجهه جيشاً من الذباب .

« خادم ايه وزفت ايه ؟ هل جننت حتى تنحنى للباب  
وللخدم والهواء ؟ ما معنى هذا ؟ » .

قلت « عفوا ، ولكنى أظن المعنى واضحاً جداً . وكل  
ما فى الأمر أن الشوق الى الانحناء ليج بى ولما أجد خيراً من  
الخدّام أو الباب لم أر أن هذا من حقه أن يحول دون اطفاء  
حرارة الشوق الذى أكابده ؛ فأما وقد نفضلتكم على بالظهور  
لى فى الوقت المناسب فاسمحوا لى أن أقوم بتجربة أخرى  
على مرأى منكم وأرجو أن تجعلوا بالكم على الخصوص - الى  
سحر ابتسامتى فانى أريد أن أطمئن عليها » .

وردت قدمى اليسرى خطوة وزميت الى كل منهم  
الحناءة باهرة ، فوجموا قليلا ثم راحوا يدقون كفا وقال  
أحدهم .

« هذا جنون مطبق » .

فقلت « كلا ! ولكن عندى كتابا يؤكد واضعه ان  
الانحناء البارع اكبر ما يمتاز به الرجل المهذب . وانا  
مستعد أن أعيركم اياه فان العلم بما فيه ينقصكم على  
التحقيق » .

ولا أطيل . عراهم سهوم الحسد فجلسوا صامتين  
برهة ثم نادى أحدهم الخادم أو صفق له على الأصح وقال  
لي قبل أن يدخل الخادم .

« لا أدري من أين تجيء بهذه الكتب ، وان كنت عظيم  
الشك فى وجود كتاب كهذا ؛ ولكن الذى أريده أن الخادم  
قد ارتاب فى عقلك فأرجو - ألح عليك - أن لا تفعل أمامه  
شيئا وكفى ما فعلت » .

فلم أعلن بالرد عليه وشربت القهوة التى طلبتها فى  
صمت ، فقد كنت راضيا عن نفسى معتزا بما أحرزت دونهم  
من براعة وحذق .

\*\*\*

والجو فى الليل يبترد فى جدة ؛ وكانت الساعة قد  
تقاربت التاسعة مساء ( بالحساب الفرنجى ) على ما زعموا



حين أعدت لنا السيارات لركوبها الى الكندرة ، فقلت  
لسائقنا الجديد وكان هنديا - فقد هجرنا صابر وملنا  
وجفانا بعد مكة - وأنزل الغطاء فاني أريد أن تكون السيارة  
مكتشوفة » .

فصاح زميلي «ولكن الجو بارد والرياح عنيفة» .

فقلت « اسكت انت من فضلك » أتريد أن تحرم  
أهمل جدة منظرنا في ثياب السسهره ! انه منظر  
لا يرونه الا في الندرة القليلة والفلته المفردة ، وحرام علينا  
أن نضن به عليهم » .

فقال « يا أخى ان الطريق صحراء لا ناس فيه ولا  
شجر ، فاصنع معروفًا ودع الغطاء مرفوعا » .

قلت « كلا أنا أيضا لا ألبس الاسموكنج كل ليلة ،  
وليس من الانصاف لى أن ارتديها وأتحمل عذاب هذه  
البنيقة ( الياقة ) الناشفة وان أختفى وأتوارى عن العيون .  
اذا لماذا تجشمت كل هذا التعب ؟ » .

ولا أحتاج أن أقول ان زميلي فى السيارة اقتنع بسداد  
رأى .

واننا ركبنا السيارة مكتشوفة وخرجنا بها من جدة  
الى الصحراء فى طريقنا الى الكندرة ؛ ولم تكن المسافة  
طويلة فقد كنا نرى أضواء القصر بعد أن جازنا سور جدة ،  
وكان القصر يعب بالناس ويزخر بالضيوف ، فجعلت  
أطوف بالحجرات الغاصة بالخلق وأعجب أين ترى سنأكل

وليس في القصر شبر خال؟ وضجكت في سري وقد تذكرت  
قول المتنبي في كافور .

جوعان يأكل من مالي ويمسكني  
كيما يقال عظيم القدر مقصود !

وخطر لي أن هذا حالنا ! ندعى مئات إلى القصر ونحجز  
فيه ولا طعام واستحييت أن أسأل وأنساني القلق على  
العشاء ؛ والخوف من عض الجوع ، ما أتعبت نفسي حتى  
مهت فيه - أعني الانحناء - ولكن وجهي كانت مرتسمة  
عليه ابتسامة تشجع الناس على المصارحة فدنا مني  
واحد وقال .

« ألا نحب أن ترى مكانك من المائدة ؟ » .

وهنا تذكرت الفن الذي خذقته فتراجعت وانحنيت  
ثم استويت وقلت :

« سيدي . اني تحت أمرك » .

فحملت في وجهي وتلعثم . ولا عجب فما له عهد  
بمثل هذه الأستاذية ؛ ولم يزد على أن قال « تفضل » .

فجدت عليه بانحناء أخرى أدق وأبرع وقلت :

« سيدي . اني أرجو أن تتقبل شكري الخالص الذي  
يفيض به قلب يعرف الجميل ولا ينكره و . . . » .

فهزول الرجل ، وبدأ لي أن الحزم أن أهزول وراءه

لثلا يهرب أو يختفى فى الزحام ؛ والدنيا كما تعلم فرص ،  
والضسيوف هنا مئات ، وأى طعام يمكن أن يكفى هؤلاء  
جميعا ؟ .

وانحدر دليلى الهارب ، من سلم خلفى لم أراه من قبل  
ولم أظن لوجوده لأن عليه أستارا مسدلة تحجبه ؛  
وانحدرت وراءه الى الصحراء ، أو على الأصح الى رقعة  
اقتطعوها منها وأحاطوها بسياج من نسيج الخيام الموشى  
وأضاءوها بالكهرباء والغاز أيضا على سبيل الاحتياط ؛  
ومدوا فيها الموائد على شكل مستطيل ورتبوا المدعوين  
بأسمائهم ، فلكل مكانه الذى لا يعدوه ، واعتدوا لكل واحد  
ما يحتاج اليه من الأطباق والملاعق والسكاكين وغير ذلك  
على الطريقة الأوربية ؛ وأقاموا فى قلب المستطيل فوق بئر  
يسقى منها القصر ، شبه مسرح زينوه بسعف النخل ورفعوا  
عليه صورة كبيرة لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود ،  
وجعلوا فوقها رايتهم وهى « بسم الله الرحمن الرحيم »  
وعليها سيفان لا شك انهما ماضيان . وقد أعجبني ذوقهم  
فى حجب البئر عن العيون وحيلتهم بالانتفاع بها  
واستخدامها .

وآن أن يطعمونا ؛ وكان هذا فد آن جدا قبل ساعة ،  
فجلس سمو الأمير فيصل فى الصدر والى يمينه معتمدو  
الدول الأجنبية ؛ والى يساره زكى باشا ونحن نثلوه ،  
وبين كل اثنين منا رجل من كهراء الحجازيين ، وتوسط  
فؤاد بك حمزة مدير الشؤون الخارجية ضلعا آخر من

المستطيل وعلى يمينه ويساره فناصل الدول وفي جملتهم  
قنصل مصر وان كان غير معترف به ؛ وهم يدعونه بصفة  
غير رسمية الى الحفلات ومآدبها على الرغم مما بين البلدين  
من الجفوة الحكومية المتكلفة التي لا مسوغ لها .

وكان أمام كل نحو ثلاثة من الضيوف  
- فوق المائدة - كرسي واطىء عليه طشت كبير غاص بالأرز  
المحمر المخلوط بالصنوبر والزبيب وما الى ذلك وفوق هذا  
كله كبش محمر تفوح رائحته المغرية وتتضوخ الى أنوفنا  
فننظر الى الأمير فلا نراه يمسسه فنكف ونتنهد ، وقد طافوا  
علينا بتسعة عشر لونا من الأطعمة الشهية حتى اكتظطنا  
جدا ولم نعد نستطيع أن نتنفس ، وبرزت صدورنا وصارت  
لنا كروش كروية عظيمة ، وعلى كثر ما أكلنا ؛ أعترف  
اني قمت متحسرا على الخروف الذي كان أمامي ، ولا أدري  
لماذا يذبحون كل هذه الخراف الجميلة ويحمرونها اذا كانوا  
لا يأكلونها ولا يدعوننا نصيب منها شيئا ؟ قد خامرنا  
الشك في انها خراف حقيقية كانت قبل ساعات تشغو  
وتقول « ماء ! ماء ! » وقلت لعلها رسوم مجسمة على صور  
الخراف ، ولكني لم أر اثرا لهذا الفن في الحجاز .

ويخيل الى أن حكومة الحجاز تعتقد أن ضيوفها  
شرهون ؛ والا لتوخت بعض القصد فيما قدمته من صنوف  
الطعام ، فان ما أدبر علينا كان يكفي أمة بأسرها ، على أن  
العرب جميعا يبالغون في مقدار ما يطعمون ضيوفهم ، ولعل  
ذلك راجع الى طبيعة البسداوة وما ورثوه من أخلاقها

وعاداتها ، لكنه اسراف على كل حال ، ولو كان لى من الأمر  
شيء لطلبت الحجر على الحكومة والناس جميعا هناك .

وخطب فؤاد بك حمزة فى ختام المأدبة لمناسبة  
انقضاء عام على مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز ،  
فبين ما قامت به الحكومة السعودية من الاصلاح وما تفكر  
فيه من وجوهه المختلفة ؛ ورحب بالمدعوين جميعا وخصنا  
نحن المصريين بالذكر الطيب وأعرب عن أمله أن تكون رسل  
سلام ووثام بين الشعبين الشقيقين ، فأجابه زكى باشا  
باليابة عنا وشكر وأثنى كما ينبغى ثم حمس فانطلق  
يخطب بالفرنسية ليفهم عنه الأجانب ، ولم يفته أن يشنع  
علينا لأننا طفنا بالسيارة متخذنا هذا دليلا على أن الاسلام  
يتسع لكل ما تجيء به الحضارة ؛ ونسى - عفى الله عنه -  
أن طوافنا بالسيارة كان باذن سمو الأمير فعلى الأمير  
حسابه .



## فنى وادى فاطمة

كان بيتنا اعنى بيت العوينى - فى طرف المدينة -  
اعنى جدة - أو لعل هذا مبتدأها فما أعرف أين بدايتها  
وأين نهايتها ، وكل ما أدريه أنه قريب من البوابة المؤدية  
الى طريق مكة والمدينة ، وأنه - أى البيت لا الطريق -  
يطل على البحر وعلى ما كان فى عهد الأتراك يسمى  
« الكازينو » ، وهو الآن مهجور ، وكان يومنا الخامس  
هو الخميس ، وهو اتفاق لم نتممه ، وفى صبيحته  
احتشد عندنا كل زملائنا اذ كنا على طريقهم ، وكان  
الغداء فى وادى فاطمة ، وكانت السيارات أمام الباب  
تدور وتلف وتضطرب استعدادا للسير ، فجلسنا نشرب  
القهوة المصرية - أو التركية كما يسمونها - ونتلاظظ  
ونتكلم جميعا فى وقت واحد ولا يصغى أحد منا  
الا لنفسه .

ثم قيل : « تفضلوا » فتفضلنا ، أعنى أن بعضنا  
وقعوا ثم نظروا الى البساقين فالفوهم جلوسا ، فقععدوا  
مثلهم ؛ فسئلوا « لماذا قعدتم ؟ » فقالوا « حتى يفسوم  
هؤلاء » فمضى الداعى يستنهض الآخرين ويتسد اذرعهم  
وهم معرضون عنه ماضون فى كلامهم ، ويكرر لهم دعوته  
أن يتفضلوا فيقوم الواحد منهم متثاقلا وكأنه لا يعى  
ما يفعل ، ولسانه لا يكف عن الكلام ووجهه لا يثنى عن  
الأعراض ، ثم تسير خطوات فيقف واحد ويواجه الباقيين  
ويضطرهم الى الوقوف والاصغاء ، حتى على السلم  
كان هذا يتكرر فكان يتفق ونحن نازلون أن يقف واحد  
بفتة ويدير الينا وجهه ، وتكون أرجلنا مهيأة فى هذه  
اللحظة للهبوط واجسامنا محنية ؛ فنردها - أعنى  
أرجلنا - بسرعة ، ونستوى واقفين فتصطدم الرؤوس  
بالصدور التى وراءها ، وترتفع الأصوات بالسخط  
والفاظ الاحتجاج والاستهجان .. وهكذا ..

وأجلت عيني فى السيارات وسائقها ، فاذا  
( صابر ) - ذلك الغلام الحنبلى - قد جفانا وآثر علينا  
سسوانا ، فترقرق الدمع فى عيني وتدلى راسى على  
صدرى ، فقد كانت صحبته رضية وحديثة شهيا ، وهو  
على الرغم من شبابه اليافع فتى مخضرم أن صح هذا  
التعبير ، أعنى أنه أدرك جاهلية الحسين وعهد ابن  
السعود ، فأفاده ذلك حكمة ليست لسنة وكياسة لا تكون  
مع الشباب ، وعلمنا بالدخائل واطلاعا على الخبايا ، فقد



كان كما أسلفت القول فى موسيقى الحرس الخاص  
بالجسدين وبنيه ، وهو الآن عامل فى شركة القنابة  
للسيارات . غفر الله له وعفا عنه فانه مصرى مثلنا .

وافسحوا الطريق وانطلقت السيارات . وعزائي ان  
سائقنا الهندى لا يعرف الطريق - ولا العربية - وأن  
( صابرا ) الذى هجرنا ، امره - لا ادرى بأية لغة  
فما فهمت كلمة من حديثهما - أن يتبعه ولا يسبقه ،  
كذلك قال لنا صابر مترجما ، فأدركت أن فى ( صابر )  
رقعة على الرغم من حنبلية مظهره .

والطريق الى وادى فاطمة هو عين الطريق الى  
مكة ، ولكنه ينحرف عنه قبلها ويذهب يسرة ويصبح بعد  
ذلك وعرا ، كله حفر ونقر وصخور وتراب ، وكان الهواء  
قد أسكرنى فنمت ومن عادنى اذا كربنى هم ان التمس  
السلوان فى النوم ، وان اتعزى بالأحلام واضغائها عن  
الحقائق ومرارتها ، وهذا من فضل الله على ، ولكم قلت  
لن يحلو له أن يهجرنى ويحسب انه بذلك يعذبنى « اذا  
كان فى وسعك ان تصد عنى فان فى مقدورى أن اصد  
عن الدنيا كلها والحياة بأسرها انظر » ثم اضع رأسى على  
الوسادة وأغمض جفنى وأقول بسم الله الرحمن الرحيم  
توكلت على الله الحى القيوم الذى لا ينام ، وأهب من  
فورى الى وادى الأحلام .

ولكننا لم نكد نميل عن طريق مكة الممهدة حتى

استيقظت والشرر يتطاير من عيني ، فقد توهمت أن  
زميلي ضربني على رأسي وكبس طربوشي على أذني ،  
وهممت بأن أمسك بتلابيبه - أعني بربطة رقبته - وفي  
نيتي أن اضيقها على عنقه حتى يختنق ، ولكن الطريق  
عاجل السيارة بحفرة أخرى ، وإذا بي ارتفع عن مقعدي  
- وحدي بلا معونة - واطير بقدرة الله حتى أبلغ السقف ،  
ثم انحط كالحجر ، وإذا بطربوشي قد غطى عيني أيضا  
وهوى إلى أرضية أنفي . ففهمت . وحاولت أن أخسرج  
رأسي فلم استطع ، فشددت الطربوش من زره ، فبقى  
الطربوش في مكانه وخرج الزر في يدي ، فأهبت بزميلي  
الراكب معي أن يساعدني . وكان لسوء الحظ نائما ،  
وكنت أنا بفضائل الطربوش لا أراه ولا أعرف ذلك  
فحسبته يعتمد أن يمنع عني معونته ، وفاظننى هذا منه ،  
وذكرت مثلنا المصري العامى القائل « ضربوا الأعور على  
عينه قال خسرانة ، خسرانة » فتوكلت على الله ونطحتة  
في كرشه - فقد كان ذا كرش كما نسيت أن أخبر  
القارئ - فهب ملبورا يقول « بع بع » واندفعت كلنا  
يديه إلى كرشه فوقعت على الطربوش - وكنت أهم  
بنطحة مرة أخرى - فتزحزح إلى آخر المقعد اتقاء  
للنطحة ، وأحسست أصابعه على حافة الطربوش مما  
يلى أذني ! فجذبت رأسي إلى الوراء فجأة وبقوة فخرج  
الطربوش في يديه مقلوبا فاعتدلت وقلت له .

« اشكرك يا صديقي . والآن هل معك دبوس ؟ »

فصاح بي « ما معنى هذا ؟ أريد أن أفهم ! حالا ! »

قلت « معناه ان زر الطربوش في يدي ، وانه لا يليق أن أبدو للناس هكذا - أعني بغير زر ، فهات دبوسا واكسب الشكر من صديقك » .

قال وهو مقتضب « ولكن هذا لا يليق . واذا كنت حضرتك تظن . . »

فقلت أقاطعه « تمام . لا يليق أبدا . ولذلك أرجو أن تعطيني دبوسا . ثم ان اسسمى ابراهيم أفندي عبد القادر المازني » .

فقال وهو بمط شفتيه اشمزازا .

« يعني حضرتك فاهم . . . »

فأسرعت الى اتمام الجملة بدلا منه « . . اني لا أستطيع ان اظهر بطربوش ليس له زر ، بالضبط ، واسمى ابراهيم أفندي عبد القادر المازني » .

فشور بيديه كليهما وقال « أوه . . . ! ده شيء يجنن ! » .

ثم عاد فالتفت الى وقال :

« يعني ازاي حضرتك تنطحني ؟ عمري ما شفت كده ! دي رحلة زي الزفت ! »

فقلت « انى اراها على عكس ذلك .. اجمل رحلة  
قمت بها فى حياتى ، وارجو ان تقوم بها معا مرة  
أخرى » .

ويظهر انه يؤس وفوض امره لله وليس سوء حفظه  
فأعرض عنى وهو يقول :

« ابق دور على غيرى » .

فقلت « ان شاء الله وان كان هذا من دواعى اسفى  
— أعنى فى المستقبل ، وفى اثناء ذلك ارجو ان تعطينى  
دبوسا » .

فلم يعد يستطيع أن يكظم غيظه وسخطه ونقمته  
وصاح :

« دبوس ايه يا أخى ؟ هو أنا دكان مانيفاتورة ؟ و لا  
حضرتك بتتريق ؟ فقلت « معذرة . ليس بى حاجة الى  
الدكان كلها . انما اريد منها دبوسا واحدا — أو ابره اذا  
امكن ، بل الابرة خير ، وارجو ان تذكر ان اسمى ابراهيم  
افندى عبد القادر المازنى » ..

فضحك اخيرا بعد ان أدرك مرادى وقال « طيب  
وحياة أبوك تبعد عنى بقى يا ابراهيم افندى يا عبد القادر  
يا مازنى » .

فانصرف عنه الى السائق واشرفت عليه من ورائه

لأرى هل فى صدره دبوس أو نحو ذلك . ففزع الأبله واضطرب وارتفعت يداه عن عجلة القيادة فكادت السيارة تنقلب بنا فى حفرة لولا أن أسرعت ومددت يدي إلى العجلة وحولت السيارة عنها . أعنى عن الحفرة .

ولا أطيل . اضطرت أن أحمل طربوشى فى يدي . وأن أشكو حرارة الشمس ووقدتها حتى وجدت من يعيرنى دبوساً أصل به الزر إلى عنق الطربوش حتى نعود إلى جدة .

ووادى فاطمة واد . كما هو ظاهر بالبداهة . ولكنه غير ذى زرع كثير ؛ فيه نخيل وأعناب ؛ وفيه موز وباذنجان ، وطماطم وليمون ، وملوخية وبامية ، وأحسب هذا كل ما فيه أو أكثره وله عين يتفرق منها الماء ويجرى فى مجرى ضيق يستطيع المرء بأيسر مجهود أن يتخطاه من جانب إلى جانب ، وإذا وضع يده فيه أى فى الماء . لم تبتل إلا عقلة واحدة من أصبعه ، وهم مع ذلك يباهون به ويعتزون ، وقد هزرت رأسى أسفا حين رأيته . أعنى الله . وقلت لواحد كان واقفاً إلى جانبي وأنا أقوم بهذه التجارب : « أن لنا فى مصر نهراً عظيماً ينبع فى جبال القمر على قول ، ومن الجنة على قول آخر أظنه الصحيح ، ويقطع فى طريقه إلى البحر آلاف الفراسخ ، وتستطيع الأساطيل الضخمة أن تفرق فيه إذا شاءت ، ومع ذلك لا يكفينا ولا نقنع به ، ولا تزال

بلادنا اكثرها صحراء بلاقع كما هي هنا . فالحق ان بلادكم او على الأصح فدا فداكم ، تعلم الزهادة وتروض النفس على القناعة » .

وهناك في قلب الوادي رأينا الخيام مضروبة ، واحدة للأمير وأخرى للاجتماع ، وثالثة لموائد الطعام ، فقد جلبوا الى الصحراء ادوات الطعام كاملة لا ينقصها كوب من الزجاج ولا سكين ولا ملعقة ، وقد عجبت لهم كيف استطاعوا ان ينقلوها من غير ان تتحطم الأنية كلها !

وكان الأمير قد سبقنا ، والمكان قد ازدحم ، وحف ممثلو الدول بالأمير فجاءونا بكراسي وصفوفها أمامه فجلسنا بينه وبين الناس ، وبدأوا يلقون الخطب وينشئون القصائد بين يديه ، يمتدحون فيها العهد السعودي ويصفون ما بلغت البلاد في ذلك وبفضله ، وساءنى ان التلاميذ شجعهم أساتذتهم على المبالغة والغلو ، ولم ارتح الى سماع كلمات « العلى والمجد والقامة والسنام » الى آخر ذلك مما زعم التلاميذ في خطبهم ان الحجاز ارتقى اليه ، وقلت لجسارلى - وأظنسه كان حجازيا - ان هذه المبالغات السخيفة هي داؤنا جميعا ، واننا جميعا - فى مصر والشام والعراق والحجاز الخ - أحوج الى مواجهة الحقائق وفتح العيون على الواقع وقياس ما بيننا وبين من سبقنا من الأمم ، وان من

الاجرام ان نخدع انفسنا ونغالطها فى هذه الحقائق ،  
ومن الجناية ان تنشئوا هؤلاء الاطفال على التوهم ان  
بلادهم بلغت اوج المجد وارتفعت الى قمة العلى وغير ذلك  
من الكلام الفارغ . وأنه أجسدى عليكم أن يعرف  
كل امرئ مبلغ ما يطلب منه فى سبيل بلاده لنتهاء نفسه  
لبذل الجهد الذى يحتاج اليه ، وضربت له مثلا فقلت  
انى قد ارى شيئا اتوهمه خفيفا فأمد اليه يدي لأرفعه  
وانا غير محتفل ، ويتفق ان يكون ثقيلًا على عكس  
ما تصورت ، فاعجز ، وأخسر وقتا وجهدا فى غير طائل ،  
ولكنى ، اذا عرفت أنه ثقيل ، أشد أعصابى وأوحى اليها  
ان تستعد لجهد عظيم يناسب ثقل الشيء الذى اريد رفعه  
او حمله ، فيجىء المجهود معادلا للمطلوب فأنجح ،  
وهكذا فى غير ذلك ، فى صغار الأمور وكبارها ، فلا  
تغشوا أنفسكم فان هذا شر ما تسيئون به اليها ،  
ولا تستهينوا بكلام تظنون انه يذهب فى الهواء ، فانه  
لا يذهب فى الهواء بل يثقل فى ثرى النفوس ويرسخ  
فى العقائد ويستكن فى ضمير القواد من حيث لا تشعرون ،  
واذا كان كل مرادكم ان تشيروا الشعور بالعزة القومية ،  
فان لهذا سبلا اخرى ، ولا خير على كل حال فى الفخر  
الأجوف .

وكان بين الشعراء رجل من الكويت - اذا كانت  
ذاكرتى لم تخفى - وشعره سخيف ولكن انشاده بديع

وفد كان وهو يلقي قصيدته الطويلة - يغنى ويمثل ،  
وأشهد أن صوته صاف خالص كصوت الفضة ، وأن  
غناؤه بارع وخال من التخنث والتطرى ، وأن تمثيله  
حسن مطابق للمعاني مؤد لها على وجه الأحكام .

وتلاه شاعر نجدى قح أعوذ بالله من القائه ، فليت  
جاء قبل الكويتي ، ولكنه أبى إلا أن يجيء قبل الطعام  
فكاد يصدنا عنه ويفتر رغبتنا فيه ، ويزهدنا في الشعر  
والأدب والمرب ، بل في الحياة نفسها فاعوذ بالله مرة  
أخرى وثانية وثالثة من القائه ، وسأظل استعيز بالله  
منه كلما ذكرته فإنه يفسد على نومي ويسود العيش في  
عيني ، ويغشى نفسي ويكرب صدري ، وقد فرست  
أسناني لما سمعت صوته ، وأحسست كأن الحكمة قد  
شاعت في جلدي - أعني الجرب والعياذ بالله مرة رابعة  
منهما أعني الجرب والصوت - وأنى لأوصي الحكومة  
الحجازية أن تقطع السنة الشعراء النجديين إذا كانت  
أصواتهم منكرة كهذا الصوت ، فإن البكم خير ألف مرة ،  
وهذا الصوت - إذا كان له مشبه - خليق أن يغري  
الخلق بالفتنة والتمرد ويدفع الرعية إلى الانتفاض والثورة .

وقمنا إلى الطعام بعد هذا البلاء الشعري ، وكانت  
الوانه - أعني ألوان الطعام لا البلاء - مغرية ، وكانت  
الخراف الشهية في الطشوت ، تخايلنا ، فسالت : هل



هى للزينة كما كانت فى مأدبة الكندرة ام للأكل ؟ فضحكوا وقالوا بل للأكل ، فالقيت السكين والشوكة ، وشمرت كفى ونهضت عن الكرسي وقلت لعبد من الواقفين :

« ارفع هذه الصحون من أمامي وافسح لذي القرنين ، فاني أراه لا يزال ذا قرنين على الرغم من المذبح بالسيف والشئ والتحمير - هات عجل ، يا عبد الله » وليسامحنى الأمير ، فاني لا أحب المفاظة .

فلما فعل - أعنى العبد لا الأمير - دفعت يدي فى خاصرة الخروف فلم أكد أفعل حتى ندت عن صدري صرخة من الطباق العالى الذى يوقظ الموتى فى قبورهم ، وإذا بى أدور على عقبى ، وذراعى فى الهواء وأصابعى مدلاة ، وفمى ينفخ ويقول « فو - فو - » من لسع النار التى فى خاصرة الخروف !

فبذمتى ليس هذا من الكرم فى شئ ! يجهلوننا أولا بهذا الشاعر النجدي ينغص عيشنا ويشعرنا غصص الموت فى حياتنا بل فى شبابنا - فقد كنا جميعا شبانا فى الحجاز حتى زكى باشا - ثم يثنون بهذه الخراف التى حشوا بطونها جمرًا متقدًا ، ويزعمون أنهم يطعموننا ويكرمونا ؟؟ لماذا إذن كانت ألوان الطعام الأخرى لا تلسع ولا تحرق ؟؟ اليس من الواضح أن هذا تدبير مقصود ؟؟

ومال الأمير - بعد الطعام الى خيمته ليستريح ؛ وملنا نحن الى النخيل نحتفى فى ذراه من الشمس -

وارتمينا على الرمال واشعلنا السجاير وذهبنا ندخن واذا  
بثلاثة من الجنود النجدية يجرون إلينا واحدا بعد الآخر  
ويسألنا كل منهم بدوره .

« معك شيء من العكس ؟ »

فلم أفهم ما العكس الذي يطلبون شيئا منه ،  
وحسبتهم يعنون الدخان فأخرجت علبة السجاير  
وعرضتها عليهم فتناولوا منها وعادوا يسألون عن  
«العكس» هل معنا منه شيء ؟ فقلت لعله طعام أو شراب ،  
وأشرت إلى خيمة المائدة وقلت :

« هنالك . لقد تركنا الخراف والله سليمة أو  
كالسليمة ، فعليكم بها أن كنتم تعنونها والأمر لله . أما  
إذا كان شرابا ما نطلبون فهذا هو المساء يجرى عند  
أقدامكم فانكفئوا عليه وعبوا فيه واكرعوا منه » .

فمضوا عني وهم يبتسمون وكأنني كنت أخاطبهم  
باللغة الأردنية . وقد علمت بعد ذلك أن العكس معناه  
في اصطلاحهم الصورة ، وكان الباعث لهم على طلب  
الصور منا أن رياض أفندي شحاتة أعد نحو ألف صورة  
— في حجم بطاقة البريد — لجلالة الملك ابن السعود  
وفرق أكثر ما معه في وادي فاطمة ، فتوهموا أن كل  
مصري مصور ورياض أفندي أيضا ! وليتنى كنته ! إذن  
لاستغنيت عن هذا الكتاب ولما أصبحت اتجشم تعب  
التسطير والتحبير ونفقات الطبع والنشر .

ثم عدنا الى خيمة الاجتماع وكانت غاصة ، ولم يكن الأمير قد حضر ، فطافوا علينا بأقداح القهوة في قعورها رشفة ؛ فعدت الى الاجتماع وظلمت أستزیده حتى فر الساقى واختفى ، ولما جاء الأمير استؤنفت الخطب ودعى زميلنا خير الدين أفندی الزركلى الشاعر السورى فأنشد قصيدة حماسية هى كل ما خرجنا به فى يومنا - بل فى رحلتنا كلها - من الكلام الرصين الجيد ، فنهض أحد السامعين من البدو ، وقد طرب ، وخلع عليه سبحته ، وهم آخر أن يخلع عليه عباءته ، ولكن اخوانه - أعنى اخوان الزركلى . . خافوا اذا توالى الخلع ان ينوء بحملها فصدوا الناس عنه وحموه - هذا الا . . أعنى الخير .

وانا كذلك واذا بزكى باشا يدخل كالمدفع ، وصوته يسبقه ، ومن ورائه السيد عبد الوهاب نائب الحرم ، فصفق له الناس فوقف يعتذر فقال كلاما أربنا ، ذلك انه التفت الى الأمير وانطلق يقول ان اهل الحجاز وعمال الحكومة يزعمون ان الأمن شامل ولكنه تبين ان هذا كذب ، ويرى من واجبه أن ينبه الأمير الى الحقيقة ويطلعه عليها ويصدقها فيها ، فقد كان مستلقيا فى ظل النخيل فسطا عليه لص وسرقه .

وهنا وثب الناس الى ارجلهم ساخطين مستنكرين ، وقلت لجارى لقد خولط الرجل ! اما كان يستطيع أن

يسكت ؟ الا بد من أن يعلن ذلك على هذه الاملاء كلها ؟

ووجمنا ، ووددت لو أنى تأخرت - وأدركت زكى  
باشا قبل أن يدخل ، لأحمله على الصمت وأصده عن  
الكلام ، غير أن ذهولنا لم يطل فقد اندفع زكى باشا يشرح  
الموضوع وإذا كل ما يعنيه ان السيد عبد الوهاب يحدث  
ظريف وأنه سرق وقته وأنساه الاجتماع والخطباء بحلاوة  
حديثه وقدرته على الافتنان فيه !

وقد عنيت بأن اذكر هذه الحادثة التافهة لأنى أريد  
أن أخص السيد عبد الوهاب بكلمة ؛ فانه بلا شك أبرع  
محدث وأظرف رجل عرفناه فى الحجاز ، وقد تعلم فى  
الآستانة وأتقن التركية والفرنسية فضلا عن لغته العربية ؛  
وعرف الأيام كما عرفها المتنبي ولكنه ظل مع ذلك رجلا  
عظوفا فيه رفق ورحمة ودمائة ومروءة ، وليس فى  
الحجاز من لا يأنس بمجلسه ويشتهى حديثه ، وهو على  
ظرفه وفكاهته كيس وقور ذو رأى انضجته السنن  
والتجارب وفكر سددته المعرفة والاطلاع . ولو شئت  
لأطلت ولكن بحسبه هذا منى .

وأشير هنا الى حادثة أخرى لها دلالتها - ذلك ان  
عميد وزراء الدول فى الحجاز هو الوزير الروسى ، وقد  
كنت أحسبه صينيا فان به من اهل الصين مشابه .  
وقد وقف يشكر للأمير دعوته هو وزملاءه الى هذه  
الولاية فى الصحراء ، وكان يتكلم بالعربية او بما يظنه

لغة عربية ، ويرفع التكر الى الأمير بالاصالة عن نفسه  
وبالنسابة عن زملائه ، ولم يطل فان من العسير أن يفيض  
المرء فى الكلام بلغة يخترعها على البديهة .

ولكن ممثل الحكومة البريطانية - القائم بأعمال  
مفوضيتها فى جدة - لم يرضه أن يكون ممثل الروسيا  
هو عميد الهيئة السياسية والذي ينطق بلسان أعصائها  
مخافة أن يتوهم العرب أن الروسيا مقدمة على إنجلترا  
ومفضلة عليها ، فاستأذن الأمير فى كلمة يلقيها ثم نهض  
فاعرب هو أيضا عن شكره للحفاوة التى لقيها والسكرم  
الذى غمره ، وقد أشرت من قبل الى هذه المنافسة بين  
الروسيا وإنجلترا هناك ، والحق أنها كانت أحيانا تبدو  
لنا مضحكة ، أو على الأصح ممتعة .

ولكل شىء آخر ، حتى الخطب والقصائد ، وفد  
تنفسنا الصعداء حين رأينا الأمير ينهض وقلنا هذا إيلان  
بالأوبة الى جدة ، والراحة ولكنهم خبأوا لنا مشسهدا  
لا أحسبني أنساه ما حييت ، فقد ساروا بنا بين النجد  
النظامية الى العراء ، وهناك وقف الأمير وأوما اليها  
فدنونا منه ورأينا صسفين من البدو النجديين ثيابهم  
شكول ، وأكثرها زاه براق ، وفى سراهم البنادق وفى  
يمناهم السسسيوف مصسلتة وبين الصفيين أربعة يروحون  
ويجيتون وأمامهم عبد يضرب بالدف ؛ وهو يطول ويقصر ؛  
ويتثنى ويتعوج ، ويميل يمنة ويسرة ، ويقوم ويرقد

ويتمرغ على التراب ، والدف فى سراه ، وفى اليمين  
عصا صغيرة ينقر بها ، والأربعة وراءه يترنججون ،  
والصفان على الجانبين بتوثبان ، والمسدسات والبنادق  
ينطلق منها الرصاص فى الهواء ، والسيوف تلمع ، ومع  
ذلك كله غناء أو شدة أو تهريج لا أدري ، بكلام اعترف  
سمو الأمير نفسه أنه لا يتبين الفاظه ، وقد اذكرنى  
ما رأيت حلقات الذكر فى مصر ، ولكن الذاكرين فى  
مصر يلهجون بأسماء الله أما هؤلاء فقيل لى ان الغرض  
من رقصهم بالسيوف والأسلحة والدفوف تحميس الناس  
ليخرجوا للقتال .

قالوا ، ولا موجب لهذا التحميس ولكنها عادة  
بدوية قديمة مثلوها لنا ليمتعونا برؤيتها ، وكان الواحد  
من هؤلاء البدو ربما خلع عقاله و « حرامه » ورمى بهما  
فى الهواء ورماهما برصاصة وتركهما يهبطان الى الأرض ،  
وفيل لى فى تفسير هذا ، ان يخلع عليه الأمير جديدا  
عوضا عن القديم الذى اطلق فيه الرصاص ويبقى العقال  
ملقى على الأرض حتى يقول له الأمير ارفعه عنها وهذا  
عندهم وعد - غير قابل للاخلاف - بان يخلع عليه  
سسواه .

وظللنا هكذا لا أدري كم ! واجر بنا أن لا نحس كر  
الوقت ومر الساعات ونحن نرى هذا المنظر الساساخر  
ونسلمع الرصاص ينطلق امامنا وفوق رؤسنا ، ولا اكتم

القارىء أن الخوف لم يفارقنى لحظة ، وانى لم اذهل  
عن نفسى ثانية واحدة ، واعترف انى كنت أخشى أن  
يصيبنى سوء - أعنى رصاصة وأشهد لنفسى بالأدب فقد  
كنت لا ازال كلما تنحى ممثل انجلترا ليفسح لى مكانا  
الى جانبه فى الصف الأول اؤكد له انى أستطيع أن ارى  
من تحت ابطه ، وانى لا أقبل فى حال من الأحوال أن  
احاذيه أو أرفع نفسى الى مقامه ، فكان بشكر لى تواضعى  
ويؤكد لى انه سعيد بجيرتى ، وانه معجب بدلاقة لسانى  
وقدرتى على الرطانة ، فكنت أقول له :

« يا سيدى الوزير ، انى عربى الأصل فى الحقيقة  
وهذه البلاد بلادى فى الواقع ، فانا لست هنا ضيفا  
ولا يجوز لابن البلاد أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه » .

واتراجع خطوة ، وأجعله أمامى ، واتخذ منه -  
بهذه الحيلة - مجنا دون الرصاص الذى اتفقى أن  
يصيبنى ، وقد صارحته بالحقيقة ونحن راجعون وقلنت  
له « أن انجلترا غنية بالرجال فهبك قتلت فان انجليزيا  
يروح وآخر يجيء ، وليس الداهب بأفضل من الآتى  
ولكنه ليس فى مصر - ولا فى جزيرة العرب على ما يظهر  
- سوى مازنى واحد ، وهذا غريب ، فقد كنت أتوقع  
أن يخرج لاستقبالى والحفاوة بى وفد من عشيرتى ،  
ولكنى لم أسمع أن واحدا من بنى مازن انحدر الى الحجاز  
لهذا الغرض ، وأسر اليك انى أخشى أن يكون ابن السعود  
قد قتلك بهم » .

فدهش وقال لماذا ؟

فخففت صوتي جدا ، وتسببت عن الأرض لأهمل  
في أذنه « ان قومي عفا الله عنهم — من اهل التخفيف »

قال « ماذا نصني ؟ فاني لا افهم » .

قلت « اعني انهم من ذوى المروءات » .

وقال « وهل يفتك بهم ابن السعود لانهم من ذوى  
المروءات ؟ » .

قلت « ان ابن السعود يكره هذا الضرب من المروءة »  
قال كيف ؟ لماذا ؟

« قلت ان اللغويين اعداء قومي — الد أعدائهم —  
يسمون المروءة قطعاً للطريق ، والتخفيف عن الناس  
سقطوا عليهم . وابن السعود وهابي أى على مذهب  
اللغويين — سوء تعبير او خطأ في الوصف كما ترى .  
واخشى ان يكون قد جر على قومي وبالا فهل لك في  
حلفي ؟ » .

قال « حلفك ؟ » .

قلت « نعم ، تحالفني على ابن السعود . اذا ثبت  
انه أوقع بهم » .

فالتفت الى بسرعة وقال « اتكلم جادا ؟ فلست  
اكتملك اني مستغرب حديثك واني لا اكاد افهم شيئا ! »



وهنا أدركتنا واحد فوضعت أصبعي على فمي ،  
ولكن « الواحد » لمحنى فقال للوزير .

« أنا واثق أن حديث المازنى قد حيرك » .

• فقال الوزير - أو القائم بأعمال الوزير على الأصح -  
« هذا صحيح . لقد كاد يجرنى الى حرب ابن السعود ،  
من أجل قضية لا أفهمها » .

فقال « الواحد » - « ألم أقل لك ؟ فماذا كان  
يقول ؟ » .

فتركتهما يتذاكران وارتددت الى زملائي فصاحوا  
بى :

« يا أخى أين كنت ؟ »

قلت « لماذا ؟ الست أمامكم ؟ »

قالوا « ان الأمير قد تفضل ودعانا الى خيمته  
ليودعنا على انفراد ، ولنا ربع ساعة نبحث عنك » .

قلت « حسنا فعلتم . تفضلوا » .

وسرت امامهم الى الخيمة ثم تنحيت لركى باشا  
فان شيبته أضوا من شيبتي ، وأنا رجل لا يكابر فى  
الحق ، فتلقانا الأمير - ومعه فؤاد بك حمزة مدير  
الشئون الخارجية - بالتأهيل والترحيب ، وأعرب عن

سروره بزيارتنا للحجاز ويقينه انها ستؤدى الى توثيق العلاقة بين الشعبين الشقيقين .

فقال زكى باشا ان العادة تثبت من مرة واحدة فقال سموه انها كذلك ، واني لأرجو ان اراكم فى كل عام على الأقل مرة .

وذكر بعضنا المدينة وانه يحب زيارتها ، فقال سموه ان الامر فى ذلك لكم ، فاذا شئتم ان تتخلفوا أياما أخرى فان الزيارة سهلة ، ولكنها تكون شاقة ومتعبة اذا أردتم تدركوا الباخرة التى تبارح جدة يوم السبت ، فاختاروا ما شئتم .

فشكرنا له ظرفه وحسن مجاملته وكرمه واعتدنا بان اعمالنا فى مصر لا تسمح لنا بطول التغيب ، ورجونا ان نتاح لنا فى العام المقبل فرصة العود الى مثل هذه الزيارة ، وافضنا فى الاشادة بما شاهدناه من دلائل التقدم وامارات الاخلاص فى ترقية الأحوال وتحسين الشسئون وقلنا ، وقيل لنا كلام كثير نسيت اكثره ثم تفضل سمو الأمير فخرج معنا من الخيمة ليرسمنا رياض أفندى حافين به .

ثم سلمنا وعدنا الى جدة . وكان هذا ختام الحفلات الرسمية .

## فنع بيت العويني

في بيت العويني ، عرفت العويني ، أعنى انى  
استطعت ان ألم بطرف من الصفات والخلال التى اعانته  
على التوفيق فى حياته ، وهو على ما علمت من أسرة  
سورية وكانت له تجارة رابحة ، فلما قامت الثورة  
السورية أمدها بنسبائه وماله وتدبيره ، وكان أشبه بزعيم  
محلى ، فقبض على طائفة من رجاله ، قال محدثى -  
والعهدة فى الرواية عليه - فأصبح يوما فاذا نساء  
الحى يصرخن ويولولن ويندبن ويصحن « يخرب بيتك  
يا عويني » .

فخيف ان يفضى ذلك الى اعتقال البساقين والى  
احباط التدبير كله ، فتولى العويني الانفاق على السجناء  
وعلى اهليهم الطلقاء - أمهاتهم وزوجاتهم واخواتهم الخ  
واحكم أمره وسارت الأمور على خير ما يرجى فى مثل

رحلة الى البحجار - ١٦١

هذه الأحوال ، وكانت الأسرات التي اضطر ان يعولها  
كثرة وفقره ، فأرقتة واستنزفت موارده فلم يسعه  
الا ان يصفى تجارته - أو ما بقى منها - وان يرحل .

فقصد الى الآستانة وفي ماموله ان يبدأ حياته  
من جديد ومكث هناك شهورا ثم ألفى نفسه بنفق  
ولا يربح فاحتمل حقائبه ومضى الى جدة وأنشأ فيها  
وكالة لتاجر سوري كبير ، وظل كذلك ثلاث سنوات حتى  
استطاع ان يقف على قدميه وان ينشئ لنفسه تجاره  
مستقلة .

وهو يستورد المتاجر بالجملة ويفرقها على التجار  
فاذا جاء يوم الجمعة انقدوه اتمان ما باعهم ، وقد أخبرني  
محدثي - ولي به ثقة - أن متوسط ما يجمعه من التجار  
في كل يوم جمعة يبلغ أربعة آلاف جنيه ؛ لا ادرى كم  
يكون ربحه منها ، وقد ذكرت ذلك لأعين القسارىء على  
تصور مبلغ النجاح الذي احرزه والذي يستحق أضعافه .  
لنشاطه ودؤوبه وكده ، وقد كنا نفتح عيوننا في الصباح  
ونتشاءب ونتمطى على حين يكون هو قد لبس بدلته  
« الأفرنجية » ولا ينقصه الا أن يضع على رأسه الحرام  
الحريرى الأبيض ، والمقال .

ولولا وجودنا وكوننا ضيوفاً لكان قد خرج الى  
عمله قبل ذلك بساعات ، ولكنه كان مضطرا ان يتأخر  
حتى يفطر معنا ، وكنت أعجب بلباقته وكياسته وحذقه .

فى حثنا على النهوض والافطار من غير ان يشعرونا انه قلق على عمله وأنه يريد ان يخرج ليباشره .

وكان العوينى يبدو لنا كأنه كل شىء : الحكومة والرعية جميعا ، فهو الذى يعهدون اليه فى تنظيم كل امر ويكلون اليه الاشراف عليه ، ويعتدونه مسئولا عنه فما احتجنا الى شىء الا قلنا أين العوينى ؟ ولا أرادت الحكومة شيئا الا قالت : هاتوا العوينى ، ولا ناقة له فى ذلك كله ولا جمل ، ولكنه النشاط وحسن التدبير والسرعة الرائعة فى انجاز الأمور وحضور الذهن واتقاد الخاطر .

وكان يساكنه شاب آخر فى مثل سنه او اقل - بل هو أصغر على التحقيق - اسمه ابراهيم أفندى شاعر حسبناه أول الأمر أخاه ثم عرفنا أنه صديقه ووكيله ، وهو حجازى صميم كان سكرتيرا خاصا للملك السابق على بن الحسين ، وابراهيم أفندى كصاحبه العوينى فى النشاط والرقه ، ولكنه ساكن وادع الطائر طويل الصمت ، يمر بك كالنسيم الوانى ، والنظرة الى وجهه تمنحش الروح وتحى النفس ، والجلوس معه يشيع فى صدرك الطمانينة والاحساس بالراحة التامة ، وهو مع سكونه دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يتأفف ولا يكون الا مفتر الثغر .

وفى بيت العوينى أيضا كان من حظى ان عرفت

خالد بك الحكيم ، وكان يلبس جبة وقفطانا ، وعلى رأسه  
الحرام والعقال ؛ وهو رجل ضخم عليه مهابة ووقار ،  
وفى عينه التماع عجيب ولحيته سحر ، وهو سورى  
من كبار المجاهدين ، تخرج فى المدرسة الحربية فى  
الآستانة وخاض حروبا شتى فى أوربا وآسيا وأفريقية  
— طرابلس — وكان مع جيش ابن السعود الذى فتح  
الحجاز ، ويسمونه « الفطاس » لأنه يكون اليوم معك  
وتفترقان على أن تلتقيا غدا ، وإذا به غدا فى الشام أو  
اليمن أو بمباى ، ولا بدرى سواه أى طريق سلك ،  
ولا علم لأحد بما كان ينوى ، وهو بكل بلد أعرف من أهله  
وانفذ بصيرة فى حاضره ومستقبله ، والعشرة من أمثاله  
يعادلون أمة ، ولقد لقيته بعد ذلك فى مصر فما ازددت  
إلا اكبارا له وإيمانا به ، اكبارا لقوته الصامتة وجلده  
على الحياة وتواضعه المحبب وإخلاصه وصراحته ،  
 وإيمانا بمظمة روحه .

وفى بيت العوينى جاءتنا هدايا الأمير ، وكان  
صديق لنا قد أسر الى اننا سنلقى هدية فسألته عنها  
أى شئ هى ؟ قال عباءة وعقال وما الى ذلك ، فقلت اذا  
كانت هذه هى الهدية فمرحبا بها وليعجلوا ، فسألنى  
« واذا كان هناك غيرها ؟ » .

قلت « ماذا تعنى ؟ » .

قال « أعنى ان من عادة العرب اذا حل بهم ضيف  
ان يهدوا ويهبوا ويصلوا » .

قلت « ان من المعقول أن تكون هذه عادتهم . فان  
البدوى فى الحقيقة فقير معدم ، وطلبته الطعام والكسوة  
والمال ، فطبيعى أن بكرم العرب الضيف اى أن يطعموه  
ويكسوه ويصلوه ، ولكننا لسنا بدوا - وانى لأشتهى أن  
تكون لى عباءة وعقال ، ولكن هذا ليس لآنى عار مفتقر  
الى الكسوة بل لآنى اعتد هذه الثياب قنية تستحق أن  
تدخر ، أما الصلة اى المال فبالله عليك الا ماصرفتهم  
عنه ، لئلا يخرجونا ويخرجوا انفسهم ، فانى لا أرضى أن  
أخذ مالا لا استحققه ثم انى استحقى أن ارد عطاء أمير ،  
ولكنى سأكون مضطرا أن ارده لأنه لا يسعنى الا أن أعده  
فى مثل هذا الموقف رشوة أربأ بنفسى وبالحكومة  
السعودية عنها ، وقد بالغت الحكومة فى اكرامنا وانفقت  
على رحلتنا هذه بضعة آلاف من الجنيهات ودفعت عنا  
حتى اجور التلغرافات التى بعثنا بها الى صحفنا ، وهذا  
كله فوق الكفاية ، ثم ان ما شاهدناه كان له وقع جميل  
فى نفوسنا فلا يفسدوا هذا الوقع بالرشوة ، وانا مقترح  
عليك بديلا منها : فانى اشتهى بلع المدينة ، المشهور ،  
فاذا كان يسمعهم أن يخاطبوا المدينة بالتليفون لترسل  
الىنا فى ينبع قليلا من البلع ، فان هذا يكون خيرا من  
كل مال » .

وقد استشار صاحبى زميلا آخر لى فنصح له بمثل  
ذلك ، فعاد اليهم صاحبنا وحملهم على الامتناع عن وصلنا  
بالمال ، وعلى الاكتفاء بالكسوة العربية والبلع - والكسوة

عبارة عن معطف مصنوع من الكشمير وعباءة سميكة من  
الصوف الجيد محلاة ومزركشة بما لا أدرى وعقال من  
الحرير مفضض وحرام من الكشمير ، وقطعة من  
السكرودة . وقد احتجت أن أقصر هذه الثياب لأستطيع  
لبسها والإنفاع بها .

وفى ينبع ونحن عائدون أبى الأمير إلا أن يستقبلنا  
كانا كنا مثله أمراء - فى سرادق عظيم القيت فيه الخطب  
وانشدت القصائد ، ثم تغدينا وأكلنا خرافا حقيقية لاشك  
فيها ولا فى رؤوسها ولا فى امخاخها ، وبلغ من حفاوتهم  
بنا أن كان كبار القوم هم الذين يتولون خدمتنا على  
على الطعام .

ثم عدنا الى الباخرة حيث وجدنا بلح المدينة فى  
« صفائح » بعددنا ، بل بأكثر من عددنا ، ففرقنا ما زاد  
واحتفظنا بانصبتنا ، ورسونا فى الطور ساعات وطفنا به  
وشاهدنا ما فيه من البنى والمعدات الوافية ، ثم عدنا  
بسلامة الله .

ولكن رحلتنا ونحن عائدون وكانت فاترة فقد كان  
ينقصنا نبيه بك المعظمة وخير الدين أفندى الزركلى ،  
فقد تخلفا فى جدة .



## خاتمة

**العرب** امتان فى امة ، أو هم على الأصح ثلاث أمة :  
واحدة تعيش فى الحواضر على نحو ما تعيش أمثالها نى  
كل بلاد العالم وهذه خليط من شعوب شتى ، فيها  
المصرى والسورى والفارسى والهندى والجاوى الخ ، وقد  
لقيت فى جدة ومكة كثيرين من التجار والأعيان علمت  
منهم أن أصولهم مصرية وأن لبعضهم فى مصر أقارب  
ومصالح وأملاك ، وحدثنى كبير فى الحكومة السعودية  
أنه عنى بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالى فعرف نحو  
مائتى أسرة مصرية استوطنت الحجاز واستقرت فيه من  
زمن بعيد أو قريب ، ولكن الشسبان المصريين هناك  
قليلون ، وهم فى حكومة الحجاز يعدون على الأصابع ،  
ولهذا عدة أسباب منها أن السوريين ، وهم أقرب الى  
بلاد العرب وأوثق بها صلة - زاحموهم فغلبوهم ،  
وللسوريين آمال قومية يعتمدون فى تحقيقها - فى جملة

ما يعتمدون عليه - على السعويين ، وقد انتفع  
السعويون بالمهندسين والضباط وغيرهم ممن تلقوا  
علومهم في معاهد الآستانة وشردتهم عن سوريا الأحوال  
السياسية ، ودفعت بهم مساعيهم القومية الى الصحراء .  
وبين السوريين من ليسوا من الأوساط العاديين ، وإنما  
هم من ذوى الصلابة وأولى العزم والقوة فلا بدع اذا  
غلبوا المصريين القليلين الذين ذهبوا في السنوات الأخيرة  
فلم يجدوا ما كانوا يأملون من الغنى السريع أو الرزق  
الوافر أو غير ذلك فعاد أكثرهم ، ومصر أرقى حضارة  
من سورية ، والترف فيها أوفر والحياة فيها انعم ،  
ولهذا كان السوري لا يحس في الحجاز انه نزل عن شيء  
من مظاهر حياته على خلاف المصرى الذى لا يجد هناك  
ما خلفه في وطنه من المناعم والملاهي ، على انى لست  
في مقام التقصى للأسباب التى أدت الى ضعف العنصر  
المصرى فى الحكومة الحجازية وإنما أردت بما ذكرت أن  
أبين أن لهذا أسبابا معقولة . والأمة الثانية : القبائل  
المقيمة على المياه الثابتة وهذه تشتغل بالزراعة الى  
حد ما ، وبالرعى وبقليل من الصناعات الساذجة ،  
ومواطن هذه القبائل ثابتة . ومحللاتها وعشائرها وبطونها  
وافخاذها تكاد تكون مضبوطة الحدود على العموم - ومن  
هذه تخرج أمة ثالثة هم البدو الرحل الذين لا يستقرون  
فى مكان ولا يزالون يتحواون من هنا الى هناك .

وقد أدرك ابن السعوي بفطرته الزكية أن هذه

البداءة هي آفة الأمة العربية وعلمته التجارب ان البدو لا خير فيهم في حرب ولا في سلم . فهم في الحرب لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقة السلاح أو صوت الرصاص حتى ينفضوا ايديهم من القتال ويذهبوا يعدون وراء الجمال وما اليها ليفنموها ، ومن اجل هذا كان يعتمد في حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو . وكان يقدم البدو في المعارك ويضع جيشه النظامي وداءهم ليمنع البدو ان يفروا وراء المغنم والأسلاب قبل ان تنتهى المعركة . اما في السلم فهم عالة عليه وعلى حكومته لأنهم لا يحسنون صناعة أو زراعة . ومادام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها الى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق ان يستقر في مكان . ولهذا فكر في تحضيرهم واخراجهم من هذه البداءة فانتقى لهم المواقع التي يكون فيها الماء وحفر لهم الآبار واوسعها أو أصلحها وألزمهم ان يبيعوا خيلهم أو جمالهم وان يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له ان يجعل منهم أمة وان ينظم أمورهم وان يقيم الحكم فيهم على قواعد الصحيحة وان يعلمهم ويثقفهم . وتسمى هذه المواقع التي اختارها لهم وألزمهم الاقامة بها والعمل فيها « الهجر » بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة ، وذلك اعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها .

وعلى هذا النحو العملى يحل ابن السمود مشاكله العديدة ، فالحجاز مثلا — على حضارته نسبيا — صحراء

جرداء ، والماء أكبر ما يحتاج اليه وأول ما ينقصه ، وقد كانت فيه آبار وعيون كثيرة هدمها الأتراك وخربها الأشراف - كل بدوره - وكانت قرب جدة بئر الوزيرية وهذه وحدها كانت تكفى جدة ، وقد ذهبت معالمها ودرست أنارها ولذلك جاءت الحكومة لينبع وجدة بالآلات لتقطير مياه البحر واشترت أخيرا آلة كهذه لجدة تقطر في اليوم مائة وخمسين طنا من الماء ، وأصلحت الصهاريج التي تخزن بها مياه الأمطار ، ومضت تجدد الآبار الدارسة وتكشف عن العيون التي سددت أو خربت ووجدت أن الآبار قليلة الغناء لأنها تجف وتنشف في بعض الفصول فابتدأت الآبار الارتوازية وجلبت الآلات لاستنباط الماء من جوف الأرض ، ومما يذكر في هذا الصدد أنها استدعت اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع التي يحسن اتخاذ الآبار الارتوازية فيها . غير أن معداتها لم تكن كافية ، فعادا ، وقد أوصت الحكومة السعودية باستدعاء اثنين من المهندسين الغربيين والمرجح أن يكون اختيارهما ممن لهم خبرة بالجزائر لتشابه طبيعة البلدين . وعملت الحكومة على اصلاح عين زبيدة بإنشاء خزان ومد أنابيب ، وهي تبنى خزاناً كبيراً آخر لجمع مياه المطر يسع مائة ألف طن ، وموقعه لا يتطلب نفقات كبيرة لأنها اختارته في مكان تحيط به الجبال من ثلاث جهات فالحاجة لا تدعو الى البناء الا من ناحية واحدة .

ومن أجل الماء تعفى الحكومة كل الآلات التي تتخذ

لاستنباطه من الرسوم الجمركية . وكذلك آلات الزراعة .  
بل هي تقسط اثمانها على الأهالي تشجيعا ومعاونة لهم .  
ومن أجل الماء تعنى بالتعليم الهندسى ، ولذلك أرسلت  
الى الآستانة طالبا يتعلم الهندسة ، وبعثت الى برلين  
بآخر . والحجاز كمصر ينبغى أن يكون بلاد الهندسة  
والمهندسين البارعين .

ولما كانت البلاد صحراء والمسافات فيها طويلة .  
فقد اتخذت الحكومة السيارات وشجعت على اقتنائها  
وقد دخل السعوديون الحجاز وليس فيه سوى سيارة  
واحدة يملكها الملك حسين السابق ، وفى الحجاز الآن  
ألف سيارة ومائتان . والبريد ينقل بين جدة ومكة .  
وبين جدة والمدينة على السيارات مرتين فى اليوم .  
والشرطة ينخدونها للمرور والعسس ، والجنود كذلك  
للاثقال والحمل . وقد بدأ استعمال السيارات بين  
الحجاز ونجد . ولا بد لذلك كله من الأمن والا فساد  
الأمر كله . ومن هنا قسا ابن السعود فى أول الأمر  
فصار يقطع يد السارق فازدجر اللصوص وقطاع الطرق .  
وآدب العشائر التى تسطو على الحجاج ، فساد الأمن  
وصار مضرب الأمثال بلا أقل مبالغة . وقد رأيت بعينى  
رأسى شواهد رائعة وأدلة مدهشة .

ومن أجل طول المسافات وتفاذف الأبعاد اتخذت  
الطيارات واللاسلكى فضلا عن التلغراف السلكى المعتاد ،

وللاسلكي الآن أربعة عشر مركزا . وقد أنشأت الحكومة  
مركزا جديدا في جزيرة دارين . وهم ينشئون شبكة  
لاسلكية لها ثلاثة عشر مركزا ثابتا للتغراف والتليفون  
اللاسلكي وذلك لوصول الرياض ومكة والمدينة وكل مركز  
في الأولوية والأفضية .

ولم يتخذوا القطر البخارية لأن تكاليفها باهظة لاتقوى  
عليها الميزانية . ولأنهم من ناحية أخرى يحرصون على أن  
لا يقطعوا أرزاق الجمالة على أنهم فكروا في إنشاء خط كهربائي  
بين جدة ومكة وأصلحو الطرق وعبدوها وكبسوها بواسطة  
« وابور الزلط » كما نسميه في مصر .

ومن أجل الحج واتقاء لتفشي الأمراض أنشأوا في  
مكة مستشفى يسع مائتي مريض وجعلوا فيه أقساما  
للجراحة والأمراض الباطنية وغير ذلك ؛ ولهم الآن عشرون  
طبيبيا حجازيا . وأقاموا محطة للحجاج في بحرة بين جدة  
ومكة وفيها مستشفى ، فضلا عن المحطات الأخرى للراحة .  
وأصلحو الكرنينة ورتبوا دوريات صحية وبنوا المظلات  
في عرفات ومنى وجعلوها بالماء والثلج وأقاموا في كل  
منها طبيبيا وممرضا . والحكومة تلقح الناس ضد الجدري .  
وقد أنشأت معملا للحصول على مصول الجدري والكوليرا  
والتيفوئيد . وأرسلت بعثات طبية للخارج . واستعارت  
طبيبيا هولنديا وبدأت توسع مستشفى جدة .

وقد حققنا بمصلي الكوليرا والتيفوئيد قبل سفرنا من

السويس ، ولكن هذه الأمراض لا أثر لها هناك . على الأقل  
فى هذه الأيام . وعلى أن مصلحة الصحة المصرية تعلن  
منذ سنوات أن الحج نظيف .

أما من حيث التعليم فللحجاز بعنة فى مصر مؤلفة  
من خمسة وعشرين تلميذا وطالبا فضلا عن البعثات الهندسية  
والطبية التى أشرنا إليها . وقد أنشأت الحكومة مدارس  
أولية وابتدائية فى جدة ومكة والمدينة وينبع وغيرها  
ومدرستين ثانويتين فى مكة وأخرى فى المدينة . وأربعة  
فى جدة . وهذا غير المعهد السعودى فى مكة وغير مدرسة  
المطوفين التى أنشأتها ... كما أنشأنا فى مصر مدرسة  
الأدلاء والتراجمة ، وغير المدارس الدينية التى لاتعد مدارس  
حديثة .

وبهذه الطريقة العملية يحل ابن السعود مشاكل  
بلاده ؛ ويعالج ترقينها وقد تبدو الخطى قصيرة ولكنها  
مناسبة لحالة البلاد وتعداد أهلها . والمال هو العقبة الكبرى  
ولكن الحكومة لاتتعجل ولا تذهب الى ائقال كاهل الناس  
بالضرائب من أجل ذلك ، وشعارها ، أن العجلة من  
الشیطان ، ولكن خطاها وطيدة مسنورة . كخطى السلحفاة  
التي سبقت الأرنب ، والأرنب عندى هو مصر . ولقد عدت  
من الحجاز وأنا مقتنصع بأن مصر اذا ظلت تتخبط وتولى  
الشئون السياسية هذا الحظ الباهظ من رعايتها على  
حساب المرافق الجدية والمرأشد الحيوية . فسببها  
الحجاز بلا أدنى ريب .





# فهرس

الموضوع	رقم الصفحة
اهداء	٥
فى الطريق الى ينبع	٧
فى جدة	٣٥
بين جدة ومكة	٥٧
فى مكة	٧٧
بين مكة والسكندرة	١١٥
فى وادى فاطمة	١٤١
فى بيت الصويشى	١٦١
خاتمة	١٦٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٠١٥/١٩٧٣



اسم  
تاريخ  
رقم  
مكان  
الاسم

Bibliotheca Alexandrina



0388246

### ابراهيم عبد القادر الم

✻ ولد بالقاهرة سنة ١٨٨٩ . وتخرج سنة ١٩٠٩ .

✻ اشتغل بالتدريس عشر سنوات وعلمه مهنة التدريس واشتغل بالصحافة حتى صدر له ما يقرب من ثلاثين كتابا من و « صندوق الدنيا » و « خيوط العنكبوت » كتاب « الديوان » في جزأين اص سنة ١٩٢١ .

✻ وفي سنة ١٩٣٠ قام برحلة الى الحجال مع بعض الصحفيين لاداء العمرة وكان هذا الكتاب ثمرة هذه الرحلة .

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)